الفصل الثامن والأربعون

الناس منازل ودرجات

وأهل الجاهلية مثل غيرهم من شعوب ذلك الزمن : أحرار وعبيد ، يستوي في ذلك الأعرابيّ وأهل المدر . والحرّ نقيض العبد ، والحرة نقيض الأمة[1] . والحرّ هو الذي يتصرف بأموره كما يشاء . وأما العبد فلا ، فأمره بيد مالكه ، فلا يجوز له ان يفعل شيئاً من غير رضا سيده ومالك رقبته . ويعبر عن الحر بلفظة (حرم) في المسند ، فيقال : (حرم) ، أي (حرّ) . والجمع (أحرر) ، أي (أحرار)[2] .

والجاهليون وان بدوا (دمقراطيين) شعبيين ، لا فرق عندهم بين حر وعبد ، كبير أو صغير . يخاطب الفقير ملكه أو سيد قبيلته بلهجة بسيطة تنم عن (دمقراطية) عميقة أصيلة إلا انهم في الواقع طبقيون يعاملون الناس حسب منازلهم ودرجاتهم ، ويعملون بمبدأ عدم التكافؤ بين الناس . وآية ذلك عُرف جلوس الناس في مجالس الملوك والمجتمعات ، وعرف تقديم الطعام أو الشراب مبتدئين بالملك ثم بمن يجلس على جانبه الأيمن باعتبار انه أشرف القوم ثم بالجالس على الجانب الأيسر من الملك ، على ترتيب الناس في درجات جلوسهم أو حسب إشارة الملك الى الساقي أو مقدم الطعام . ثم في نظرتهم الى (الحق) والى الأعراف الاجتماعية كالأخذ بالثأر والزواج . فلهم في الأخذ بالثأر مبدأ مقرر

---

١ اللسان (٤ / ١٨١) .

٢ Rep. Epig., VII, p. 416, Nu. 4912, Philby 84

معروف . هو ان القتيل اذا كان شريفاً في قومه ، وكان قاتله وضيعاً صعلوكاً ، أو عبداً فلا يقبل أهل القتيل بـ (القوَد) ، بل يعرف تكافؤ الدم . فعندهم ان دم القتيل الشريف ، لا يغسل إلا بدم شريف مثله ومن أهل مكانته ، ومعنى هذا ان قتل القاتل لا يكفي ، بل لا بد لأهل القتيل في هذه الحالة من البحث عن شريف من قوم القاتل يكون مكافئاً للقتيل في المنزلة والمكانة حتى يقتل به ، فيغسل عندئذ بقتله دمه . وينام الثأر . وقد يكون المقتول وهو ما يحدث في الغالب بريئاً ولا علاقة له بالقتيل ولا القاتل . ولكن العرف القائم على نظرية التكافؤ بين الطبقات ، لا يفهم براءة بريء ، وحق قتل القاتل وحده ، بل يدين بعقيدة ان الدم لا يغسل إلا بدم موازٍ له ، فلا بد من قتل شريف بشريف إذنْ حتى ينام أهل القتيل .

والى ما تقدم من الإسراف في القتل وقتل البريء بدم مقتول ، أشير في القرآن الكريم : (ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ومن قتل مظلوماً ، فقد جعلنا لوليه سلطاناً ، فلا يسرف في القتل)[1] . (وذلك ان أهل الجاهلية ، كانوا يفعلون ذلك ، اذا قتل رجل رجلاً عمد ولي القتيل الى الشريف من قبيلة القاتل فقتله بوليه ، وترك القاتل ، فنهى الله عزّ وجلّ عن ذلك عباده ، وقال لرسوله ، عليه السلام ، قتل غير القاتل بالمقتول معصية وسرف ، فلا تقتل به غير قاتله . وان قتلت القاتل بالمقتول ، فلا تمثل به)[2] .

وعلى هذه النظرية الطبيعية بنوا تقييم أثمان الديات ، أي ثمن الدم . فدية الملوك في الجاهلية أغلى ما دفع ثمناً عن دم . إذْ جعلت دية الملك ألفاً من الإبل ، فعرفت لذلك بدية الملك . تليها في الثمن ديات الأشراف وسادات القوم حسب الشرف والمنزلة حتى تصل الى ديات المغمورين المطمورين فتكون أقلها ثمناً . إذْ تبلغ خمساً من الإبل ، وقد تنقص في ذلك . وعلى هذه النظرية القائمة على (الفوقية) و (التحتية) ، قدرت فدية الأسرى أيضاً . ففدية الملوك الذين يقعون في أسر آسر ألف من الإبل ، وعرفت بـ (فدية الملوك) وفدية من هم دونهم أقل حتى تصل الى أبخس ثمن ، وهي فدية سواد الناس . ولهذا حرص

١ الاسراء ، الآية ٣٣ .
٢ تفسير الطبري (١٥/٥٩) .

الأسير الشريف الذي لا يعرفه آسره على اخفاء شخصيته وعلى التظاهر بالإمـــلاق وبأنه من المغمورين ليجنب نفسه دفع فديـــة عالية قد يفرضها آسره عليـــه ، فتوجعه وتؤلمه .

ومن هذه النظرة أيضاً ولد اعتقاد أهل الجاهلية ان دم الرئيس يشفي من عضة الكلب الكلِب[1] . فإذا كُلب إنسان أتوا رجلاً شريفاً فيقطر لهم من دم إصبعه فيسقون المكلوب فيبرأ . أو يسقونه من دم ملك فيشفى . جاء في المثل : دماء الملوك شفاء الكلب . ودمـــاء الملوك أشفى من الكلب . قال أهـــل الأخبار عن الكلب : (وأجمعت العرب ان دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه) ، فيشفى بذلك من الكلب[2] . ولو لم يكن للجاهليين رأي خاص في الملوك والأشراف ، وفي وجود تفوق لهم على سواد الناس ، لما اعتقدوا هذا الاعتقاد في اشفاء دماء الملوك والأشراف لمن يصاب بالكلب . وبعدم شفاء دم غيرهم لهؤلاء المرضى .

ومن هذه النظرة أيضاً ، تولد امتناعهم من تزويج بنات الأشراف والأسر من رجال هم دون البنت في المنزلة . وهو عرف يراعونه ويحافظون عليه الى يومنا هذا . ويزدرون من شأن الخارج على (التكافؤ) بين البنت والولد في الزواج . وقد يرفضون تزويج رجل ثري مكتنز للمال ، من امرأة فقيرة شريفة الأصل ، اذا كان الرجل من أصل ذابل ، كأن يكون أبوه أوجده (صانعاً) أو (خضاراً) ، لأن الأصل في نظر العرب فوق المال . والشريفة يجب ألا تزوج إلا من شريف مثلها ، مراعاة منهم لمبدأ نقاوة الأصل وانجاب الأولاد النجباء . ومن هذه النظرة امتنع العرب من تزويج بناتهم من الأعاجم حتى لو كان ذلك الأعجمي ملكاً . وقد رأينا كيف ان (النعمان بن المنذر) ، رد طلب (كسرى) لما طلب منه تزويجه إحدى بناته من أحد أبنائه . وشقّ ذلك عليه حتى انه لم يملك من ضبط نفسه ، فقال للرسول : أما في عين السواد وفارس ما تبغون حاجتكم . ومراده من لفظة (عين) البقر . ومن اغتنام (زيد بن عديّ بن زيد العبادي) هذه الفرصـــة ، وكان هو الذي اقترح على (كسرى) ان يزوج أحد ولده من بنات النعمان ، فقال لكسرى : (قد كنت أخبرتك بضنهم بنسائهم على غيرهم،

---

١ بلوغ الأرب (٢/٣١٩) .

٢ تاج العروس (١/٤٦٠) ، (كلب) .

وان ذلك من شقائهم واختيارهم الجوع والعري على الشبع والرياش ، واختيارهم السموم والرياح على طيب أرضك هذه حتى انهم ليسمّونها السجن) . ومن قوله له : (أيها الملك : إن شرّ شيء في العرب وفي النعمان انهم يتكرمون عن العجم)[1] . فكان ما كان من غضب (كسرى) على النعمان ومن القضاء عليه على النحو الذي تحدثت عنه[2] .

وقد جعل بعض العلماء تخوف العرب من القهر عليهم ومن طمع غير الأكفاء في بناتهم ، في جملة العوامل التي حملتهم على وأد البنات . (قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدّهم في هذا تميم . زعموا خوف القهر عليهم ، وطمع غير الأكفاء فيهن)[3] . ومن شروط الكفاءة في الزواج عند الجاهليين ، التكافؤ في النسب والحسب والمكانة وفي الأصل .

وسبب امتناع العربي من تزويج ابنته الى أعجمي ، هو تكرم العرب عن الأعاجم واستعلاؤهم عليهم . ونظرتهم الى الأعاجم على انهم دونهم في المنزلة والكرامة . لذلك رأوا ان تزويج بنت عربية الى علج أعجميّ ، خسة ما بعدها خسّة ودناءة ما وراءها دناءة . حتى وان كان العربي فقيراً لا يملك شيئاً . بل عابوا العربي الذي يتزوج أعجمية بسبب النسل ، واستصغروا شأن المولود من أبٍ عربيّ ومن أم أعجمية . فهو وان كان عربياً في عرف العرب من أجل ان النسب الى الأب ، ولكنه أعجميّ من ناحية الأم ، فهو دون الأصيل في المرتبة .

وفي غنى العربية بالمصطلحات الكثيرة التي تطلق على السادة والأشراف وعلى الفقراء والمعدمين التربين وعلى الطبقات الأخرى ، دلالة ليس فوقها دلالة على وجود هذه النظرة الطبقية عندهم ، وعلى نظرتهم الى أنفسهم على انهم منازل ودرجات ، وانهم غير متكافئين . وان القيادة في المجتمع يجب ان تكون للبيوت .

١ الطبرى) ٢٠٢/٢ وما بعدها) ، (ذكر خبر يوم دى قار) .

٢ (وقد هجا عبد العيس بن حفاف البرجمي ، النعمان بن المنذر ، في الجاهليه ، وذكر ولادة الصائغ له ، فقال .

لعن الله ثم ثنى بلعن ... ابن ذا الصائغ ، الطلوم الجهول
بجمع الجيش ذا الألوف ويعرو ... ثم لا يرأ العدو فيبلا)

الحيوان ، (٣٧٩/٤) ، (هارون) ، الأغانى (١٥٨/٩) .

٣ القرطبى ، الجامع (١١٧/١٠) ، (تفسير سوره النحل)) .

ثم ان الأحرار على منازل ودرجات . وهم متفاوتون من حيث الشرف والمال . ويظهر التفاوت بين أهل المَدَر أكثر مما يظهر بين أهل الوبر ، ذلك لأن الأعرابي فخور بنفسه ، يرى انه « شريف » مثل غيره نبيل وان قل ماله وشح . ثم ان التفاوت بين الطبقات لا يمكن ان يظهر في البادية ظهوره بين الضواحي والقرى ، لأن طبيعة البادية لا تساعد على ظهور ذلك التباين ، حتى ان عبيد الأعراب لم يكونوا يكوّنون طبقة خاصة مضطهدة ، ينظر اليها نظرة أهل القرى بازدراء ، بل كانوا يعدون في البادية كأعضاء من أعضاء الأسرة [1] .

والتباين الطبقي هو على ما أوضح ما يكون في اليمن ، لأن الطبيعة قد حبت أرض اليمن خيرات وجوّاً لم تحبُ المناطق الأخرى من جزيرة العرب مثلها ، فكانت نتيجة ذلك ظهور الاقطاع فيها ، واشتدت الحاجة الى شراء الرقيق واستجلابه لاستغلال التربة واستثمار جيرات الأرض وتشغيله في المهن الوضيعة ، وظهر في اليمن أغنياء ومتوسطو حال وفقراء معدمون ، أي طبقات اجتماعية كونت ذلك المجتمع بشكل واضح لا نراه في المجتمعات العربية الأخرى ، أشير اليهم في الكتابات .

رجال الدين :

ورجال الدين طبقة في رأس طبقات المجتمع مكانة ومنزلة ، ولها امتيازات خاصة ، لأنها ألسنة الآلهة الناطقة على هذه الأرض ، والآمرة والناهية باسمها ، وهي تقرب الناس الى الآلهة ، وتحرّم وتحلل . وقد رأينا ان أوائل حكّام العربية الجنوبية هم « مكربون » ، أي رجال دين . ولرجال الدين أملاك وأموال ، ولهم على الناس حقوق ، يأخذونها منهم ، كما تأخذ الحكومة حقها من الشعب . وهم طبقة كبيرة ذات قوة وسلطان مصالحها مع مصالح الحكّام بالرغم من الانفصام الذي وقع فيما بين الدولة والمعبد ، وإبعاد « المكرب » عن الحكم ، وحصر حق الحكم في الملك وحده ، وحصر حق ادارة المعبد في رجال الدين وحدهم ، وذلك لأن مصالح الملك ومصالح رجال الدين متشابهة ، وكل جهة من

---

١ Ancient Israel, p. 68.

الجهتين بها حاجة الى مساعدة الجهه الأخرى .

وكثيراً ما نقرأ في كتابات معين : ان الـ « شوع » او الـ « رشو » الفلاني قدّم قرباناً الى آلهة معين ، او بنى معبداً ، او أقام بناءً ، او عمل عملاً تقدمةً لآلهة معين . ولفظتا « شوع » و « رشو » تعنيان الكاهن والسادن ، أي منزلة دينية ذات مركز سام ، وهي أعلى درجات الكهنوت في العربية الجنوبية .

السادة والأشراف :

ويعبر عن السادة والأشراف بتعابير التعظيم والتفخيم ، ومنها لفظة « أبعل » « ابعل » ، ، أي سيد ورئيس . وهي لفظة استعملت للآلهة كذلك . استعملت بمعنى رب وإله . فورد « ود بعل ... »و « عشتر بعل ... » وهكذا . وقد استعملت في النصوص القديمة خاصة .

ويقال للسادة « أسود » « اسواد » في العربية الجنوبية ، وهم السادة الأشراف[1] . وتقابل اللفظة لفظة « سادات » في عربيتنا . وهم سادة القوم وأشرافهم وأصحاب المنزلة والمكانة في المجتمع .

ويعدّ أعضاء الأسرة المالكة في طليعة السادات ، وهم في السيادة على حسب قربهم او بعدهم من الملك ، ويقدمون على هذا الأساس عند حضورهم الى الملك وفي المواسم الرسمية . ولهم أرضون يستغلونها ، ورقيق يخدمهم .

ويعبر عن وجيه القوم وذي المنزلة والمكانة بلفظة « كهثم » « كهث »[2] وعكسها الوضيع والخامل والصغير والحقير ، فقد ورد : « كل انسم كهثم وقطنم » ، ومعناها : « كل إنسان : كبير وصغير » او « كل انسان وجيه ووضيع » . وتطلق لفظة « القطين » وهي « قطنم » و « قطن » في لغة المسند ، على الخدم والأتباع والإماء في لغة القرآن الكريم[3] . فهي إذنْ في نفس

١ Arabien, S 128.

٢ راجع النص . Glaser 509, Rhodokanakis, Stu , I, S , 68

٣ اللسان (١٧/٢٢٢) .

المعنى المراد من اللفظة في لغة المسند . وقد ذكر علماء اللغة ان القطين أتباع الملك ومماليكه [1] .

ويقابل أهل الوجاهة والمنزلة في المجتمع ، من يطلق عليهم « ص غ ر م » « صغرم » ، أي صغير .ويراد بها سواد الناس ، ممن لا وجاهة لهم ولا مركز لدى الحكومة والمجتمع ، كما في هذه الجملة : « كبرم فاوصغرم » ، ومعناها : « كبير أو صغير » [2] .

وفي الدرجات العليا من درجات المجتمع ، الأقيال وهم إقطاعيون كبار ، لهم أرضون واسعة وسلطان ، وقد يجد « القول » القَيْلُ قوة في نفسه ومنعة ، فينازع الملوك على الملك ، ويأخذ الحكم بيده .

وترد في الموارد الاسلامية درجة أخرى تذكر عادة مع الأقيال ، هي درجة « ذو » وتجمع أذواء . ويظهر انها من الدرجات الإقطاعية التي صار لها شأن في العهود المتأخرة القريبة من الاسلام . ويراد بها أصحاب الأرضين ورؤساء الإقطاعيات ، كما تطلق على رؤساء القبائل . وقد أخذت من (ذ) التي ترد في المسند ، ومعناها (ذو) في عربيتنا وهي بمعنى (صاحب) في العربيات الجنوبية .

الوجوه :

وسادة القوم هم وجوه المجتمع وسادات القبائل وقادة الجيوش . من (مقتوين) ومن أمراء حرب ، ومن المقربين الى الملوك وكبار موظفي الدولة . وهم أنفسهم من الطبقات العالية في الغالب . وقد ورثوا منازلهم إرثاً ؛ ولهم أرضون وثراء وقصور يقيمون فيها ، وبيوت مشيدة ، وخدم يخدمونهم ، وقد حصلنا على أسماء عدد منهم من الكتابات .

والتجارة من أشرف ما يشتغل به إنسان عند قريش وعند غيرهم من العرب .

---

١ اللسان (٢٢٢/١٧) .

٢ راجع الفقرة السادسة من النص المرسوم بـ : Oslander 35

وقد اشتغل بها أكثر أشراف مكة ، إذْ كانوا تجاراً يتاجرون مع اليمن ومع بلاد الشأم والعراق . وقد كانت الحرفة الوحيدة المربحة في جزيرة العرب . فالزراعة لا تدر عليهم ربحاً كبيراً ، لعدم توفر الماء الكافي لزراعة أرضين واسعة تأتي لأصحابها بغلات واسعة وبأموال طائلة ، والصناعة غير متيسرة ، لذلك عافوها وعابوها ، ولم تكن لديهم وسيلة مربحة أخرى غير التجارة .

ومن الألفاظ الدالة على الوجاهة والمكانة عند العرب الجنوبيين ، لفظة « قرمن » ، أي « القرم » [1] . وهي في هذا المعنى في عربيتنا كذلك ، فيقال للسيد قرم . والقرم من الرجال السيد المعظم و (المقرم) ، هو أيضاً السيد المعظم [2] .

المحاربون :

ويكون المحاربون طبقة خاصة بهم ، وهم أناس احترفوا الخدمة العسكرية وعاشوا عليها ، وقد أشير اليهم في الكتابات وعرفوا بـ « قسم » « قسد » « ق س د » . وقد ذكروا بعد أصحاب الأرض في إحدى الكتابات [3] ، وقبل « التجار » « مكر » و « الكيالين » « سلا » في كتابة أخرى [4] . وقد أشار اليهم « سترابو » إذْ جعلهم في الطبقة الأولى من طبقات المجتمع في « العربية السعيدة » . وكان قد قسم هذا المجتمع ثلاث طبقات : المحاربين ، والمزارعين ، وأصحاب الحرف اليدوية [5] .

ويظهر من دراسة بعض النصوص التي وردت فيها كلمة (قسدن) ، ان

١ Ryckmans 508.

٢ اللسان (١٢/٤٧٣) ، تاج العروس (قرم) .
قال أوس بن حجر :
ادا معرم منا زر أحد نابه نخمط مادرا ناب اخر مقرم
أمالي المرتضى (١/٢٥٨) .

٣ Glaser 1210, A. Grohmann, S., 123.

٤ Glaser 1571, Rhodokanakis, Bodenwirtschaft, S., 183,
Altsabäische Texte, I, 105, Kata Texte, I, 73.

٥ Handbuch, I, 123, A. Grohmann, S., 123

(القسود) ، ، كونوا طبقة كبيرة خاصة في دولة سبأ ، كانت منزلتها دون منزلة الاشراف واصحاب الاقطاع وفوق رقيق الارض ، المسمون بـ (ادومت) ، التابعين للأرض والذين يباعون معها عند بيع الأرض . وكانوا يستعلون الارض التي تعطى لهم لاستغلالها في مقابل اداء الخدمة العسكرية والاشتراك في القتال عند وقوعه ، فهم عساكر وفلاحون في آن واحد . ويشبه حالهم حال العساكر الذين منحهم الخلفاء الراشدون ارضين زراعية لاستغلالها في مقابل هرعهم الى القتال مع المحاربين عند توجيه الدعوة لهم . وهو نظام كان عند الساسانيين والبيزنطيين .

وقد كان الاشراف وأصحاب الاقطاع يستأجرون من لا ارض له ، باعطائه ارضاً لاستغلالها في مقابل الدفاع عنهم والقتال دونهم . ولذلك كان لكل اقطاعي (قسود) استطيع تسميتهم بالفلاحين المحاربين . يحاربون معه ويدافعون عنه . واذا مات سيدهم ، صارت السيادة الى من ينتقل الارث اليه .

ويعرف المحارب بـ « اسدم » « اسد » في العربيات الجنوبية ، اي جندي وعسكري في اصطلاحنا اليوم . وهم احرار وعبيد . ووردت في بعض الكتابات حملة « اسد املكن » « اسد املكان » ، اي « جنود الملك » و « جنود الملوك » ودلك تعبيراً عن جماعة اختصت بالخدمة في جيش الملك . وقد اشير اليهم في كتابة بمناسبة انشاء طريق [1] .

ويلحق هذه الطبقة طبقة الـ « اتمت » ويراد بها الجنود المرتزقة ، او ما يعبر عنه بـ (العساكر) في الزمن الحاضر [2] ، وقد كوّن « العساكر » أو « عساكر السلطان » كما عرفوا في بعض البلاد الاسلامية في ايام الخلافة طبقة خاصة ، اعتمدت على سلطانها وقوتها ، فلم تحفل بأحد وأخذت تعتدي على الاهلين . وقد كانوا خليطاً من الاحرار ومن الرقيق ، اعتمد عليهم الحكّام في الدفاع عنهم وفي القضاء على خصومهم ، فعاشوا على خدمة سادتهم ، وقد صارت حرفتهم وراثية ، فابن الـ « اتمت » ، ينتسب الى الخدمة في المعسكر ايضاً حين بلوغه سن الخدمة ويعيش في خدمة سيده .

١ Rep Epig 4624, J Ryckmans, L'Institution Monarchique, 147, Arabien, S. 123.

٢ A Grohmann, S , 123

التجار وتوابعهم :

ويكوّن « التجار » طبقة خاصة من طبقات المجتمع العربي الجنوبي . ويقال لهم « مكر » في لغة المسند . وقد كانوا يتاجرون في البرّ والبحر ، ولهم فوافل وطبقات دنيا من رقيق وخدم تؤدي الواجبات التي يريدها سادتهم منهم . وكان لهذه الطبقة شأن خطير في تأريخ العربية الجنوبية في القديم ، وأثر بليغ في اقتصاد البلاد ، وتزويد الحكومة بمصدر كبير من مصادر دخلها وهو الضرائب التي كانت تدفعها اليها .

وقد تعرض علماء العربية للفظة (المكر) ، فقالوا : ان من معانيها السوق ، وفيها يقع المكر والخداع . وان (الماكر) العير تحمل الزبيب ، والتمكير احتكار الحبوب في البيوت [1] . ولهذه المعاني صله مباشرة بالتجارة وبالاتجار في البرّ والبحر .

وفي العربية طبقة عرفت بـ « سلا » ، تعاطت تجارة الملح ، كانت تبيعه وتستورده وتصدره وتقوم بنقله من مواضعه الى الاسواق . وقد شبه « رودوكناكس » هذه الطبقة بـ « الكواليان » في الوقت الحاضر [2]

الطبقات الدنيا :

ومن الطبقات الدنيا عند العرب الجنوبيين : الـ (ادم) والـ (صغرم) (الصغر) (الصغار) ، والأجراء (اجرم) ، والمتربون (غبر) ، والـ (ومي) (امي) .

الادم :

وترد في كتابات المسند كلمة هي « ادم » و « ادومت » . وتقابل لفظتي « ادم » و « ادومت » و « آدمي » و « أوادم » في العراق ، بمعنى خادم وخدم [3] . ووردت في صورة : « اديمت » « اديمت » و « ادوم » في الكتابات

١ تاج العروس (٣/٥٤٩) ، (مكر) .

٢ Glaser 1571, A Grohmann, S., 124

٣ راجع النصوص الموسومة بـ : ٦٨٩ ، ٦٩٧ ، ٧٠٤ ، ٧٠٧ ، ٧١٢ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٣٠ ، ٧٨٤ من كتاب :
Jamme, Southarabian Inscriptions, p 76, 77
راجع النقش رقم (١٦) ، ص ٢٣) ، من كتاب خليل يحيى نامي : نقوش خربة معين .

القتبانية المتأخرة [1] . وتؤدي معنى التبعية . وأعني بالتبعية الاعتراف بسيادة رئيس على مرؤوس [2] . فقد كان اصحاب الارض يؤجرون الارض لمن لا ارض لهم ، ومن لا مال لهم ، فيقيمون فيها يشتغلون لأصحابها ، ويكونون تبعاً لهم . ويعبرون عن هذه التبعية بتلك اللفظة المعبرة عنها . فهم في هذه الحالة اذن مزارعون يعيشون من كراء الارض [3] .

وقد وردت هذه اللفظة بهذا المعنى ، خاصة في النصوص المتعلقة بقبيله « سخيم » [4] . وهي ذات املاك واسعة وأرضين خصبة ، وأجرتها لمن لا ارض له من الوافدين عليها من الاماكن الاخرى ، لتستغل هذه الارضين وتعيش عليها ، معترفة بذلك انها في حماية هذه القبيلة وفي خدمتها .

وهي فضلاً عن ذلك تعبر عن التبعية بكل اشكالها ، فتعبر عن الانتماء الى شخص او قبيلة كذلك ، بمعنى ان « الادم » تابع لذلك الشخص او القبيلة ، منتمٍ اليه . ولذلك يذكر الـ « ادم » اسم سيده الذي ينتمي اليه ويحتمي به ، كأن يذكر اسمه او اسم القبيلة التي ينتمي إليها . وقد يعبر باللفظة عن معنى (تابع) و (خادم) بالمعنى المجازي ايضاً ، في مثل مصطلح « ادم ملكن » أي « خادم الملك » و « عبد الملك » و « آدم الملك » [5] . وذلك تعبيراً عن الاحترام للملك وعن الاقرار بتبعية الشخص المذكور له ، وباخلاصه له اخلاص العبد لسيده ، وان كنا نجد ان للملك حاشية كبيرة هي حاشية (ادم) حقيقية ، اي طبقة لا تملك ارضاً ولا ملكاً ، ومعاشها من خدمة الملك ، حيث يتولى القصر الانفاق عليها ، كما كانت للأسرة الكبيرة جماعات من الـ « ادم » تخدمها وتؤدي لها مختلف الأعمال .

١ Glaser 1398, Handbuch, I, S., 122, Anm 4.

٢ Rep Epig, VII, p. 296, 4651,

٣ Rep Epig, VII, p. Num 4651, 4662.

٤ Rep. Epig., VII, p 301, 4659, p 302, 4660, p. 303, 4662.

٥ SE 80, Rhodokanakis, Die Inschriften an der Mauer von Kohlan-Timna', 25, A. Grohmann, S. 124.

فالـ « ادم » إذن وفي الغالب ، تعبير عن جماعة من الناس كانوا أحراراً ، إلا انهم لم يكونوا من المتمكنين في حياتهـــم من حيازة أرض أو ملك ، لذلك جعلوا أنفسهم في خدمة غيرهم ، بأن كروا الأرضين من أصحابها ، لاستغلالها في مقابل حق معلوم ، او اتفقوا مـــع ثري على أداء عمل له في مقابـــل أجر يقدمونه اليه . وهم طبقة واسعة العدد . وهي لذلك أرقى منزلة وأحسن حالاً من حال العبيد المملوكين ، والرقيق المشترى من الأسواق .

وقـــد فسرّ بعض الباحثين كلمـــة (ادوم) (ادوام) و (ادمت) ، و (ادومت) ، بمعنى عمـــال الأرض ، او طبقـــة واطئة من المزارعين الذين لا يملكون أرضـــاً ، أحوالهم ضعيفة ، لأن ما ينتجونه لا يكفي لاعاشتهـــم . وذكروا ان كلمة « ضعيف » المستعملة في العربية الجنوبية تعبر عن ذلك المعنى المراد من تلك الكلمات [1] .

وقد ورد في بعض النصوص لفظ (ا ج ر م) بمعنى (أجير) و (أجراء) [2] ، وهم الأشخاص الذين يشتغلون بأجور يدفعها لهم أصحاب الأرضين أو أصحاب المال أو أصحاب العمل . وقد كانوا طبقة من الطبقات الدنيا ، بدليل ذكرهـــم في هذه الجمله : « كل معنم حرم واجرم » [3] ، (كلّ معينيّ حرّ وأجير) ، أي كل فرد من أبناء معين حر وأجير ، بتعبير أوضح . والأجراء هـــم أكثر حرية من العبيد ، لأنهم يشتغلون بأجر وبعقود يتفقون عليها . فإذا انتهى العقد ، او حصل خلاف ، جاز للأجير الانتقال الى موضع آخر ، او الى صاحب محل آخر للعمل لديه ، على حين لا يجوز للعبد فعل ذلك ، لأنه ملك يمين . والأجراء أناس أحرار ، يستطيعون التنقل والتصرف بحرية ، ولكنهم فقراء معدمون لا يملكون شيئاً ، وعيشتهم من العمل الذي يقومون به لغيرهم مقابل الأجر الذي يقدمـــه رب العمل لهم .

وقد يكون الأجر الذي يدفع عن عمل مقطوع ، وقد يكون عن أمـــد يحدد كأن يكون أجر يوم واحد او أيام ، فإذا تم النهار دفع الآجر للأجير . وقـــد

---

١ A Grohmann, S, 124

٢ النعش رقم ٥٧٧ ، Jamme, Southerarabian Inscriptions.

٣ النقش رقم ٥ ، الفقرة ٣ من كتاب . نقوش خربة معين (ص ٥) .

يكون الأجر لموسم كامل ، كموسم زرع . وقد كان الأجراء يشتغلون في الزراعة خاصة كحرث الأرض وزرعها او حصاد الزرع او قطف الثمر . ولضعف هذه الطبقة ، وعدم تمكنها من أخذ حقها بالقوة ، كان بعض من يؤجرهم يأكل حقوقهم ، ولا يدفع أجورهم ، او يأكل قسماً منها . ونجد هذه الطبقة في العراق حيث أشير اليها في شريعة « حمورابي » ، كما نجدها في أماكن أخرى من العالم ، وما زال العامل يستخدم في مقابل أجور يومية للقيام بمختلف الأعمال [1] .

وقد ورد في الكتابات القتبانية ذكر جماعتين : جماعة عرفت بـ « غبر » ، وجماعة عبر عنها بـ (ومي) ، او (امي) [2] . و « الغبر » في عربية القرآن الكريم هم الفقراء والصعاليك ، وفي العربية كلمة أخرى تؤدي هذا المعنى هي لفظة (غَبَرْاء الناس) ، أي فقرائهم ، ومنه قيل للمحاويج بنو غَبَرْاء ، كأنهم نسبوا الى الأرض والتراب . وبنو غبراء الفقراء . وأما (الغرباء) ، فهم الصعاليك [3] . فالغبر ، إذن هم طبقة من الطبقات البائسة الدنيا التي كانت في قتبان وفي غير قتبان ، طبقة من الفقراء والصعاليك ، لا تملك شيئاً ، ليس لها في حياتها غير البؤس والتعاسة لأنها ولدت بائسة تاعسة فعاشت في تعاستها هذه في هذا العالم على صدقات الناس وعلى ما يحصلون عليه بالسرقة او بالاستجداء وبالقيام بالخدمات والأعمال المتعبة في سبيل الحصول على ما يقوتهم الى يوم خلاصهم من هذا العالم بالوفاة .

وبمعنى المحاويج والصعاليك فُسّر بيت (طرفة بن العبد) ، بقوله :

رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذاك الطراف الممدّد [4]

وعرف (بنو غبراء) بـ (المدقعين) للصوقهم بالدقعاء ، وهي الأرض . كأنهم لا حائل بينهم وبينها [5] ، و (الدوقعة الفقر والذلّ) و (جوع أدقع وديقوع شديد) [6] .

١ Ancient Israel, p. 76
٢ A Grohmann, S., 124.
٣ اللسان (٥/٥ وما بعدها) .
٤ تاج العروس (٣/٤٣٧) ، (غبر) .
٥ المصدر نفسه .
٦ تاج العروس (٥/٣٣١) ، (دفع) .

وأما (الومي) (امي ؟) ، فطبقة من الطبقات الدنيا كذلك ، من هذه الطبقات العاملة البائسة التاعسة التي لا تحصل على عيشها إلا بشق الأنفس . ولعلّها الطبقة التي يقال لها « شفلوت » في العربية الجنوبية في هذه الأيام[1] . ويجوز ان تكون للكلمة صلة بلفظة « امي » في عربيتنا التي تعني الجاهـــل والشخص الذي لا يقرأ ولا يكتب .

وفي العربية لفظة « الحشم » ، قيل انها تعني المماليك والأتباع ، مماليك كانوا او أحراراً[2] . وورد ان الحشم الأحرار ، والقطين : المماليك[3] .

رؤوس وأذناب :

ونجـــد التفاوت الاجتماعي في ذروته عند العرب الجنوبيين كما بينت ذلك من إيرادي للمصطلحات الاجتماعية المتقدمة . ويقع هذا التفاوت في الدولة وفي المجتمع عند الحضر وعند (اعربن) الأعراب . ويقع بين القبائل كما يقـــع في القبيلة الواحدة . فالقبائل أيضاً منازل ودرجات . وعلى رأس القبائل القبيلة التي ينتسب لها المكربون او الملوك . مثل (معين) و (سبأ) و (قتبان) و (حضرموت) و (أوسان) . ولهذا ذكرت مع الآلهة والحكّام ونسبت اليها الحكومات . ثم ذكر بعدها القبائل الأخرى التي هي أقل أهمية منها . أما في القبيلة الواحـــدة ، فنجد تفاوتاً بين أبنائها ، وقد رتبوا وصنفوا في درجات ومنازل . أعلاهـا عند السبئيين مثلاً أعضاء الـ (مزود) و (حسود ؟) ، أصحاب المشورة والرأي والدين يستشيرهم الملوك ، وهم طبقة ممتازة كانت فوق القانون ، ذات امتيازات خاصة . يليهـــا أصحاب الأمـــلاك والأرض والمال المسمّون بـ (مسحنن) في السبئية ، و بـ (طبنن) في القتبانية . ثم تليها طبقات أخرى تتدنى حتى تصل الى أسفل ، وهي طبقة (الادومت) (ادم) : طبقة (الاوادم) أي الخدم .

ويعـــدّ المقربون الى الملوك من أشراف الناس ومن أصحاب الحظوه والجاه .

---

١ A. Grohmann, S. 125

٢ اللسان (١٢/١٣٦) .

٣ اللسان (١٣/٣٤٣) .

وهذا شيء طبيعي ، بالنسبة لكل مكان وزمان ، فالذي يصل الى الملك او الحاكم لا بد وان يكون من ذوي الجاه والمنزلة والمكانة . وقد عرف من اختص بالملوك بـ (أصفياء الملوك) وبـ (أحباء الملك) وبـ (ندماء الملوك) ، وهـم من الخاصة بالطبع . ويعبر عنهم بـ (مودد ملكن) في العربيات الجنوبية .

وأدنى الطبقات منزلةً في المجتمع ؛ هي طبقة العبيد ، هي طبقة تقوم بالخدمة وبسائر الأعمال التي يأنف الإنسان الحر من ممارستها . وقد يكون معظم أفرادها من الزنوج المستوردين من افريقية . وأما الباقون فمن الرقيق الأبيض المستورد من أسواق العراق ومن أسواق بلاد الشأم . وقد كان العبيد ملكاً يباع ويشترى بيع الأموال المنقولة ، ويتصرف صاحب العبد به تصرفه بملكه الخاص ، ولم يخول القانون العبد حق ابداء رأيه في مستقبله في أي حال من الأحوال ، لأنه ملك وبضاعة مملوكة ، وكالماشية ، وان كان إنساناً حيّاً له ما لكل إنسان من روح وادراك وشعور .

ويعرف العبد بلفظة (عبدم) في الكتابات العربية الجنوبية ، أي (عبد) . وبلفظة (عبدن) ، أي « العبد »[1] . وتشمل كل العبيد ، مهما اختلفت ألوان بشرتهم . وترد هذه اللفظة في عربية القرآن الكريم كذلك ، وفي سائر اللهجات العربية الأخرى مثل اللهجة (اللحيانية)[2] ؛ كما ترد في لغة بني إدم (عبدو) وفي اللغة العبرانية[3] . وتستعمل اللفظة للتعبير أيضاً عن العبودية المعنوية ، مثل نسبة عبودية الإنسان الى الآلهة أو للملوك أو الكبار وللأشراف والسادات .

ونؤدي لفظة (قن) معنى عبد ؛ أما (قنت) (قنيت) (قنية) ، فتؤدي معنى عبدة . وردت بهذا المعنى في الكتابات الصفوية[4] . وتعبر عن طبقة العبيد التي كانت منتشرة في كل أنحاء جزيرة العرب ، وفي كل أنحاء العالم إذْ ذاك . إذْ كانت القوانين الحكومية والقوانين الدولية تعدّ الاتجار ببيع الرقيق تجارة

---

١ Rep. Epig., VII, p. 148, Num 4217, p. 155, Num. 4230, Southarabian Inscriptions, P. 444.

٢ Lihyan und Lihyanisch, S., 143

٣ Hastings, p 864

٤ Littmann, Safa., p. 139

مشروعة وتعدّ العبد ملك يمين لصاحبه ، متى أبق جاز لصاحبه ومالكه قتله . وهو ملك مثل أي ملك ، وحق الملكية حقّ مقدس مصون .

و « القن » في عربية القرآن : العبد الذي مُلك هو وأبواه . وعرف انه العبد الذي ولد عندك ، ولا يستطيع ان يخرج عنك . وورد (لم نكن عبيد قن ، إنما كُنّا عبيد مملكة) . وقيل : عبد قن الذي كان أبوه مملوكاً لمواليه ، فإذا لم يكن كذلك فهو عبد مملكة [1] . فالقن إذن هو عبد بالولادة ، وقد ورثه سيده ؛ فهو عَبْد عبدٍ ، أو عبدُ عبيدٍ .

و (القني المماوك ، فهو في ملك سيده . وقد اقتني وصار في مقتنيات مالكه ، فهو من طبقة المملوكين . ومن هذه الطبقة المملوكة جماعة عرفت بـ (رب ملكن) (ربب ملكن) (ربيب الملوك) (ربيب الملك) ، بمعنى (عبد الملك) و (عبيد الملك) [2] .

أبناء الحبش والأبناء :

وقد تولد من استيلاء الحبش على اليمن جيل جديد تعرّب وكوّن طبقة خاصة من طبقات مجتمع اليمن . وقد تكون هذا الجيل من عنصرين : حبش ولدوا في اليمن من أبوين حبشيين ، ثم بقوا في اليمن وعاش أبناؤهم فيها ، وحبش تزوّجوا من اليمن ، فنشأ لهم نسل فيه دماء الحبش ودماء أهل اليمن . وقد عاش الجيلان في اليمن وتعربا ونسيا أصلها وصارا يتكلمان العربية واعتدّاها لغتها ، ولكن ملامحها الافريقية ، أو الملامح المختلطة دساسه ، لم تتمكن من الاختفاء عن الجيلين ، بل بقيت تنطق بأصلها وبصلتها القديمة بالأرض السوداء .

وعرف الجيل الذي ظهر في اليمن من تزوّج الفرس في العرب بـ « الأبناء » ، وغلب عليهم الإسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم [3] . وقد كتب اليهم النبي يدعوهم الى الاسلام . وقد ساعدوا المسلمين ودافعوا عن الاسلام وفاوموا الردة ،

---

١ اللسان (٣٤٨/١٣) ، تاج العروس (٣١٤/٩) ، (قن) .

٢ Rep. Epig 4145, Arabien, S, 125

٣ اللسان (٩١/١٤) ، (بنى) .

ومنهم وهب بن منبه بن سيج بن ذكبـــار ، وطاووس ، وذادويه ، وفيروز الديلمي [1] . وقد قيل عنهم : الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن ، وهم الذين أرسلهم كسرى مع سيف بن ذي يزن لما جـــاء يستنجده على الحبشة فنصروه وملكوا اليمن وتديروها وتزوجوا في العرب ؛ فقيل لأولادهـــم الأبناء ، وغلب عليهم هـــذا الاسم لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهـــم . وذكر أنهـــم عرفوا بـ (أباناوي) في لغة (بني سعد) و (بنوي) في لغة بعض العرب [2] .

ويظهر من بعض الأخبار ان العرب توسعت في مفهوم الأبناء فأطلقتهـــا على كل الفرس الذين اجتذبتهم الحروب الى جزيرة العرب [3] .

وعرف « الأبناء » بتسمية أخرى أيضاً هي (بنو الأحرار) . أمـــا الذين ولدوا من آباء فرس وأمهـــات عربيات فقد عرفوا في الكوفة بالأحامرة ، وفي البصرة بالأساورة ، وفي جزيرة العرب بالخضارمة ، وفي الشأم بالجراجمة [4] .

وقد ذهبت بعض كتب التواريخ التي ألفها أهل اليمن ، (ان أبنـــاء اليمن ينتسبون الى (هرمز) الفارسي الذي أرسله كسرى مـــع سيف بن ذي يزن . فاستوطن اليمن . وأولد ثلاثة ، بهلوان ودادوان وبانيان ؛ فأعقب بهلوان بهلول . والدادويون يسعوان ، ومنهـــم بنو المتمير بصنعاء وصعدة وجراف الطاهر ونجر البون . والدادويون خوارج . ومنهم غزا كراذمار وهم خلق كثير) [5] .

وعرف العربيّ المولود من أمة بـ (الهجين) . وهو معيب . وقيل هو ابن الأمة الراعية ما لم تحصن ، فإذا حصنت فليس الولد بهجين . أو (مَنْ أبوة خير من أمه) . (قال المبرد : قيـــل لولد العربي من غير العربية هجين ، لأن الغالب على أولاد العرب الأدمة . وكانت تسمى العجم الحمراء ورقاب المزاود ، لغلبة البياض على ألوانهم) [6] .

١ الروض الأنف (١/٥٤) .
٢ تاج العروس (١٠/٤٨) ، (بنى) .
٣ البيان (٣/١١٤) .
٤ الأغاني (١٦/٧٣) .
٥ تاج العروس (١٠/٤٨) ، (بنى) .
٦ تاج العروس (٩/٣٦٥) ، (هجن) .

أما طبقات المجتمع الحضري بالنسبة الى العرب الآخرين وأسماؤها ، فلا ذكر لها في النصوص الجاهلية ، وانما ذكرت في الموارد الاسلامية،وأكثره مما يخص عرب الحجاز ؛ لأن اكثر ما ورد عن الجاهلية القريبة من الاسلام هو مما يخص موطن الاسلام . فكل اعتمادنا فيه على هذه الموارد الاسلامية .

وفي العربية ألفاظ عديدة تعبر عن منازل الناس في الشرف والسيادة . هي في الواقع من النعوت التي اطلقها الناس على الاشراف مبالغة في مدحهم وتفخيمهم . وأشراف القوم هم سادتهم من ارباب البيوت . ونجد في الموارد الاسلامية ذكر (اشراف قريش) . وهم كبار قريش وسادتها وأصحاب البيوت فيها . كما نجد تعبيراً يدل على الرئاسة والزعامة هو (رحى القوم) ، يقال لسيد القوم الذي يصدرون عن رأيه وينتهون الى أمره [1] .

وقد عُيّر السودان في الجاهلية وفي الاسلام . عيّروا بسوادهم وبملامح اجسامهم وبطريقة تكلمهم . هذا حسان يهجو احدهم بقوله :

وأمّك سوداء نوبيّـــة كأن أناملها الحنظب [2]

و (الخلاسي) الولد [3] بين أبوين أبيض وأسود ، ابيض وسوداء او اسود وبيضاء . فهو المضرب . وقال بعض علماء اللغة : تقول العرب للغلام اذا كانت امه سوداء وأبوه عربياً آدم فجاءت بولد بين لونيهما غلام خلاسي والأنثى خلاسية قال الجاحظ : (ورأينا الخلاسيّ من الناس ، وهو الذي يتخلق بين الحبشيّ والبيضاء ، والعادة من هذا التركيب انه يخرج اعظم من ابويه وأقوى من أصليه ومثمريه . ورأينـــا البَيْسريّ من الناس ، وهو الذي يخلق من بين البيض والهند ، لا يخرج ذلك النتاج على مقدار ضخم الأبوين وقوتهما ، ولكنه يجيء أحسن وأملح) . [4]

وقد شابت السنة هؤلاء (طُمطمانية) ، اي عجمة . قال عنترة :

تأوي له فلص النعام كما اوت خرق يمانيـــة لأعجمَ طمطم [5]

---

١ اللسان (١٤/٣١٤) ، (صادر) ، (رحا) .
٢ العمدة (١/٣٠٠) .
٣ تاج العروس (٤/١٣٨) ، (خلس) .
٤ الحيوان (١/١٥٧) ، (هارون) .
٥ تاج العروس (٨/٣٨١) ، (طم) .

السادات :

وسادة القوم اشرافهم ورؤساؤهم ، وذكر ان السيد الذي فاق غيره بالعقل والمال والدفع والمنع ، المعطي ماله في حقوقه المعين بنفسه . وذكر ان السيد : الحليم لا يغلبه غضبه [1] .

والسيادة منزلة ودرجة ، ولا تأتي احداً الا باعتراف قومه له بسيادته عليهم وبتنصيبهم له سيداً عليهم . وكانوا اذا سوّدوا شخصاً عصّبوه ، والتعصيب التسويد ، ولهذا كانوا يسمّون السيّد المطاع معصّباً . وذكر ان العصابة العمامة . وكانت عمائم سادة العرب هي العمائم الحمر [2] .

وتعدّ الأسر الحاكمة التي ينشأ فيها عدد كبير من الملوك والحكام اسراً عريقة في الشرف ، وينظر اليها نظرة تقدير واحترام ، لأنهم ورثوا المجد عن آبائهم أباً بعد أب . وينطبق ذلك على سادات القبائل الذين يرثون سيادتهم قبائلهم أباً عن جد ، فانهم يفتخرون بذلك على غيرهم ، لأنهم ليسوا من اولئك الذين انتزعوا السيادة فصاروا سادة ، على حين كان آباؤهم او اجدادهم من الخاملين .

وقصد سادات القبائل وبعض الشعراء الكبار الملوك ، ورحلوا اليهم من منازلهم ، وتقربوا اليهم ، وتوسطوا لديهم لبعض الناس . وقد عرف هؤلاء بـ (الرحال) . ولهذا نجد في الكتب ، انها اذا تعرضت لمثل هؤلاء قالت عنهم انهم من (الرحال) . فقد عرف (عروة بن عتبة بن جعفر بن كلاب) بـ (عروة الرحال) ، (وانما سُمّي الرحال لرحلته الى الملوك) [3] . كما عرفوا بـ (زوّار الملوك) ، ومنهم (ابو زيد الطائي) .

وأشراف الناس ، هم الذين نالوا الشرف والسؤدد بين قومهم ، فسادوهم . والسيد هو الرئيس ، ويطلق على الرب والمالك والشريف والفاضل والكريم وعلى من ساد قومه ، مثل سادات القبائل . وقد نعت رسول الله (سعد بن معاذ) بـ (سيّد الانصار) . وتقول العرب (هذا سيّدنا) و (فلان سيّدنا) ،

١ اللسان (٣/٢٢٨ وما بعدها) .
٢ تاج العروس (٣/٣٨٦) (طبعة الكويت) .
٣ البلاذرى (١/١١٠) .

أي رئيسنا والذي نعظمه . وتقول (ساد قومه) ، اي صار سيدهم ورئيسهم [1] . ونعت (قيس بن عديّ) بـ (سيد قريش) [2] . وكان يوم وفاة (سعد بن معاذ) بالمدينة يوماً مشهوداً . حتى حضر الرسول جنازته وكبر عليه تسعاً ، كما كبر على حمزة ، تعظيماً لشأنه . وشهد دفنه [3] . وكان من عادة اهل مكة في الجاهلية انه اذا مات لهم سيد كبيرٌ اغلقوا اسواقهم اعظاماً لموته ، وتعبيراً عن تقديرهم له [4] . فغلق الاسواق عند الجاهليين عند وفاة رجل خطير من امارات التقدير والتعظيم .

ومن امارات تكريم الميت الشريف ، تجمع الناس عند بيته ، احتفالاً به لنقله الى موضع دفنه . واذا كان الميت خطير الشأن كان الجمع اكبر . وهو يتناسب في كثرته مع مكانة ودرجة الميت في المجتمع . وقد ذكر انهم كانوا يقولون للرجل الشريف يقتل : (العقيرة) [5] .

والسادات هم الرؤوس ، رؤوس الناس . اما من دونهم فأذناب . وعرفوا بـ (أذناب الناس وذنابتهم) ، اي اتباعهم وسفلتهم ، والاتباع دون الرؤساء . يقال : جاء فلان بذنبه ، اي اتباعه . قال الحطيئة يمدح قوماً :

قوم هم الرأس والاذناب غيرهم ومن يسوّي بأنف الناقة الذنبا [6]

والسادات (مصابيح الظلام) ومشاعله ، بنورهم يهتدي الفقراء واصحاب الحاجة والفاقة ، فينالون منهم ما يخفف عن كربهم وفقرهم . يطعمون الناس في الحضر والسفر ، فهم سادة الناس وملاذهم حين تغلق كل الابواب بأوجه الاذناب التاعسين البائسين .

ويقال لأشراف قوم وللبارزين منهم وجوه القوم ووجهاء القوم ، فورد (وكان من وجوه القرشيين) ، و (كان من وجوه قريش) . وأما (سروات) مثل

١ اللسان (٣/٢٢٩ وما بعدها) ، (صادر) ، (سود) .
٢ نسب قريش (٤٠٠) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٦٤) .
٤ البلاذري ، أنساب (١/٨٧) .
٥ تاج العروس (٣/٤١٥) ، (عقر) .
٦ تاج العروس (١/٢٥٤) ، (ذنب) .

(سروات الانصار) و (سروات قريش) ، ففي هذا المعنى ايضاً ، وجوه الانصار وأشرافهم ووجوه قريش وأشرافهم . و (السرّي) ، هو الرئيس [1] . وتعني كلمة (النواصي) خيار العرب واشرافهم . فيقال هو ناصية قومه ، وهو من ناصيتهم ونواصيهم . و (النصية) من القوم الخيار الاشراف [2] .

ويعرف الاشراف المعرقون بـ « النجوم » ، وواحدهم « نجم » . وقد اشار اليهم « حسان » في شعره ، فذكر ان الذين يحملون « اللواء » اي « لواء الحرب » ، هم النجوم [3] . ويقال لسادة الناس (الجحاجح) كذلك [4] . ويقال لهم : (العُرى) ، وهم سادات الناس الذين يعتصم بهم الضعفاء ، ويعيشون بعُرفهم . شبهوا بعرى الشجر العاصمة الماشية في الجدب [5] .

وأما لفظة (ربّ) التي تعني بعلا ايضاً ، وإلـهاً ، والتي تعبر عن معنى (إلـه) في الرمس الحاضر ، فقد اطلقت في لغة المسند على السيد والشريف ، لتعبر عن معاني التفخيم والاحترام ، وأطلقت في معنى (إلـه) ايضاً في النصوص المتأخرة في الغـالب ، وهي من الألفاظ السامية القديمة التي وردت في معظم لغات الساميين .

وقد وردت في عربيتنـا بمعنى المالك والسيد والمدبّر ، وأطلقت بمعنى الملك كذلك . وقد كان اهل الجاهلية يطلقونها على الملك ، قال الحارث بن حِلِزَة :

وهو الربّ والشهيد على يو م الحيـارين والبـلاء بلاء [6]

هذا وللسنّ اهمية كبيرة عند العرب ، لأن الانسان اذا ما تقدم في السن ازدادت حكمته وتجاربه في الحياة ورجح عقله . لذلك يكون مرجعاً لمن هو دونه في العمر ، وملاذاً في المشورات ، ويعبر عنهم بـ (ذوي الاسنان) [7] . وهم الطبقة الذكية

---

١ تاج العروس (١٠/١٧٦) ، (سره) .
٢ تاج العروس (١٠/٣٧٠) ، (نصا) .
٣ لم نطق حملـه العواتق منـهم انمـا يحمـل اللـواء النجوم
البرقوقي (ص ٣٨٠) ، ديوان حسان (هرشفلد) (ص ١٩) .
٤ ديوان حسان (ص ٣٦) (هرشفلد) .
٥ اللسان (١٥/٤٦) ، (عرا) .
٦ تاج العروس (٢/٤٥٩) (الكويت) ، (رب) (ربب) .
٧ اللسان (١٣/٢٢٢) ، (صادر) ، (سنن) .

الفطنة المجربة من ذوي المكانة في الناس بالطبع . ولهذا نجد القبائل تتمسك بأخذ الرأي والمشورة من ساداتها المسنين ومن حكمائها المعمَّرين ، لأنهم عركوا الحياة وخبروها وعرفوا ما فيها من مرّ وحلو . لذلك جعلوهم في الطبقات العليا من الناس .

و (الربّ) الرئيس والمرجع ومن تكون اليه الطاعة . والارباب ، هم السادات (قال المنذر يوماً لخالد ، وهم على الشراب ، يا خالد ، من ربك ؟ فقال خالد : عمرو بن مسعود رَبّي وربك . فأمسك عليها) [1] . و (المنذر) هو المنذر الأكبر اللخمي ، وخالد ، هو خالد بن نضلة . ولهذا كان يقول العبد لسيّده : ربّي . وتقول حاشية السيّد والملك لسيدها وملكها : ربّنا .

قال الحارث بن حازّة :

ربُّنا وابننا وأفضل من يم شي ومن دُون ما لديه الثناء

وقال لبيد حين ذكر حذيفة بن بدر :

وأهلكن يوماً ربّ كندة وابنه وربّ معدّ بين خَبْتٍ وعرعر [2]

و (الخُطر) [3] الاشراف من الرجال العظيمو القدر والمنزلة . والخطير الواحد . ويقال للرجل الشريف ، هو عظيم الخطر . وقوم خطيرون : قوم اشراف [4] . ويقال (العبقري) للكامل والسيد من الرجال . وهو سيد القوم وكبيرهم والذي ليس فوقه شيء والشديد القوي [5] .

وقد عرف سادة قريش ووجوهها بـ (خضراء قريش) . ولما صعد الرسول (الصفا) ، عام الفتح ، وجاءت الانصار فأطافوا بالصفا وجاء (ابو سفيان) ، فقال : (يا رسول اللهِ أُبيدت خضراء قريش ! لا قريش بعد اليوم) [6] . يقصد

١ أسماء المغتالين ، (ص ١٣٣) ، (نوادر المخطوطات) ، (عبدالسلام هارون) .
٢ الحيوان (٣٢٨/١ وما بعدها) ، (هارون) .
٣ بضم الخاء .
٤ تاج العروس (١٨٤/٣) ، (خطر) .
٥ تاج العروس (٣٧٩/٣) ، (عبقر) .
٦ صحيح مسلم (١٧٢/٥) ، (باب فتح مكة) .

نخبة قريش وخاصتها ، في مقابل (أوباش قريش) ، الذين قال عنهم الرسول للأنصار : يا معشر الانصار ! هل ترون أوباش قريش [1] .

والأخضر عند العرب الأسود . وقد افتخر (الفضل بن عبّاس بن عتبة اللهبي) بلونه ، اذ قال :

وأنـــا الأخضر من يعرفـــني أخضر الجلدة في بيت العرب

يقول : أنا خالص لأن الوان العرب السمرة ، وأنه عربي محض لأن العرب تصف ألوانها بالسواد ، وتصف الوان العجم بالحمرة ، والخضرة عند العرب السواد [2] . وورد (خضر غسان) ، و (خضر محارب) . قال الشاعر :

ان الخضارمة الخضر الذين غدوا أهل البريص ثمانٍ منهم الحكم

والخضارمة جمع خضرم ، وهو السيّد الحمول [3] .

ويقال لمن هم دون الاشراف وفوق الطبقات الدنيا ، (اوساط الناس) ، و (الاوساط) ، و (اللهازم) . يقال هو من لهازم القبيلة ، اي من اوساطها لا اشرافها [4] .

المستضعفون من الناس :

والمستضعفون من الناس ، كثيرون ، وقد نظر اليهم مجتمعهم نظرة ازدراء واستهجان ، واعتدّهم من الطبقات الدنيا . إما لفقرهم وضيق ذات يدهم ، ومنهم الفقراء والصعاليك والمحتاجون وأبناء السبيل ، واما لطيشهم وخروجهم من مجتمعهم ، ومنهم الطريد والضالّ والخليع ، واما لانشغالهم بحرف يدوية ، وهي حرف لا تليق بالرجل الكريم ، ولا سيما الحرف الدنيا مثل الحلاقة والحجامة والحمالة وأمثالها ، واما من ناحية اصلهم ، مثل ان يكونوا عبيداً او عبيداً مملوكين .

ولاستصغارهم شأن الحرف اليدوية ، لم يقبل عليها الاحرار وابناء البيوت ، الا

١ صحيح مسلم (٥/١٧٠ وما بعدها) ، (باب فتح مكة) .
٢ تاج العروس (٣/١٧٩ وما بعدها) ، (خضر) .
٣ الحيوان (٣/٢٤٧) ، (هارون) .
٤ تاج العروس (٩/٦٩) ، (لهزم) .

من اضطرته الفاقة ووجد الا سبيل له الى العيش الا بالاشتغال بها ، فانصرف اليها صاغراً . ولهذا كان اكثر اصحاب الاعمال اليدوية من الرقيق والاعاجم واليهود . واذا اخذنا بروايات اهل الاخبار نجد ان عدد اصحاب الحرف اليدوية كان قليلاً جداً ، فلم يكن في مكة مثلاً احد من النجارين البارعين على ما يفهم من رواياتهم كرواياتهم عن اعادة بناء الكعبة قبل النبوة بخمس سنين ، او كانوا قلة يعدّون عداً . وكذلك يقال عن بقية الحرف ، ويقال مثل ذلك عن يثرب . ولا استبعد ان تكون في روايات اهل الاخبار مبالغات ، ولكننا لا نستطيع نكران ازدراء العرب للحرف والصناعات .

وكانوا يعيرون من يتزوج من ابنة صائغ او حداد او نجار ، ويعيرون نسله ، ولا سيما اذا كان من بيت رفيع . وقد وجد اعداء (النعمان بن المنذر) آخر ملوك الحيرة وحساده في أمه (سلمى) التي قيل انها ابنة قين او صائغ يهودي ، سبباً قوياً من اسباب استهزائهم به والاستصغار لشأنه . اما الحرفي ، اي الذي يشتغل بالحرف اليدوية ، فلم يكن من السهل عليه التزوج من بنات الاحرار ، لما قد تتعرض له أسر البنات من تعيير وسبّة واهانة بين الناس ، بتزويجهم ابنة حرة لشخص وضيع مستصغر .

وأدنى المتعيشين بالحرف منزلة ، الحلاقون والحجّامون والحمّالون ، ثم اولئك الذين يعيشون على تلهية الناس ، مثل سائس قرد ، وهو الشخص الذي يربي القردة ويعلمها القيام ببعض الالعاب لتسلية المتفرجين واضحاكهم في مقابل صدقة يقدمونها لقردته وله ، ومثل اناس آخرون يربون حيوانات اخرى للغرض نفسه ، او يتخذون لهم مهنة اضحاك الناس عليهم لدر عطفهم والجود عليهم ، ومثلهم المخنثون والمغنون المطربون .

وقد عرف المعدمون المتربون ، وهم الذين لا يملكون شيئاً بـ (بني غبراء) ، للزقهم بغبراء الارض ، ويقال لهم (الصعاليك) ايضاً [1] ، وقد ذكرت قبل قليل

١ اللسان (٩٢/١٤) ، (بنى) ، (هم اللصوص والصعاليك المهتدون في مجاهل الارض ، والعالمون بطرقها . وقيل : بل هم الفقراء اللاصقون بالعبراء من سوء الحال ، على غير عطاء ولا وطاء ، قال طرفة بن العبد :

رأيت بني عبـــراء لا يكرونني ولا أهل هذاك الطـــراف الممدد

يقول : أنا معروف عند الاحبار والاشرار ، وعند اللئام والكرام) ، الثعالبي ، ثمار (٢٧٠/١) .

ورود لفظة « غبر » في الكتابات القتبانية ، وان لها صلة بـ (غبراء الناس) وبـ (بني غبراء) في عربيتنا . وقد تكون لهذا المصطلح صلة بمصطلح اختلف علماء التوراة في المراد منـــه ، هو مصطلح (عـــم هـ — ارز) ، أي (ناس الأرض) (أهل الأرض) ، فقد ذهب بعض العلماء الى انها تعني طبقة وضيعة من سواد الناس ، أو (الفلاحين) الذين يعيشون على استغلال الأرض .

ونعت الخادم الذي يخدم بطعام بطنه (بالعضروط) ، وهو الصعلوك ، والعضاريط الصعاليك . وتعهد الى العضروط مختلف الخدمات ، مثل العناية بالراحلة وأداء أي عمل آخر يقوم به في مقابل طعام بطنه [1] . ويقال للعضروط : اللعُموظ ، وهو الذي يخدم بطنه . و (العضارِط) الأجراء [2] .

و (الخول) العبيد والخدم ، ويقال : القوم خول فلان ، أي أتباعـــه ، وهم حشم الرجل وأتباعه . ويقع على العبد والأَمة [3] فهم إذنْ الأتباع المغلوبون على أمرهم الخاضعون لحكم المتحكمين في رقابهم من السادة .

والمملوك خلاف الحر ، والرقيق : المملوك واحد وجمع . والرقيق العبد [4] . ورَقَّ صار في عبودية [5] . والعبد : المملوك خلاف الحر [6] . ونجـــد لعلماء اللغة تفاسير كثيرة لمعنى (العبد) ، والرقيق ، وفي مدى حرية كل واحـد منها . وقد استعملت لفظة (العبد) للدلالة على معان مجازية ، ومعان حقيقية . فقـــد قصد بها الخضوع والتذلل ، ولهذا نهي عن استعمالها بهذا المعنى في الاســـلام ، فورد : (لا يقل أحدكم لمملوكه عبدي وأمَتي ، وليقل : فتاي وفتاتي) [7] . وقصد بها أيضاً العبودية الحقيقية .

ولفظة (عبد) و العبد) لفظة عامة في الأصل ، وقد وردت بهـذا المعنى في أكثر اللغات السامية ، فاستعملت في معانٍ مجازية وفي معان حقيقية ، ولم تكن

١ اللسان (٣٥١/٧) .
٢ اللسان (٣٥١/٧ ، ٤٦٠) .
٣ اللسان (٢٢٥/١١) ، (صادر) ، (حول) .
٤ اللسان (١٢٤/١٠) ، (صادر) ، (رقى) .
٥ اللسان (١٢٣/١٠) ، (صادر) ، (رقق) .
٦ اللسان (٢٧٠/٣) ، (عبد) .
٧ اللسان (٢٧١/٣) ، (عبد) .

تعني شخصاً مملوكاً بالمعنى الحقيقي من لفظة (مملوك) بالضرورة . وطالما نقرأ في كتب أهل الأخبار جملاً ، مثل : (ومن هو ؟ إنما هو عبد من عبيدي) ، و (أنت عبد من عبيدي) ، وذلك تعبيراً عن ازدراء شخص لشخص آخر ، واستصغاراً لشأنه ، لأنه جعله في منزلة خدمه وعبيده .

واستعملوا لفظة : (عبد) و (العبد) بالمعنى الحقيقي الخاص بالعبودية ، وقصدوا بها (مملوكاً) ، فقالوا : (كان عبداً روميّاً) ، وقالوا : (كان عبداً حبشياً) ، فقصدوا بها (مملوكاً) كائناً ما كان لونه ، أو جنسه . والظاهر ان المتأخرين قد غلّبوا استعمالها على العبيد والسُّود ، فأطلقوهـا عليهم من غير ذكر صفتهم ، وعنوا بها الرقيق الأسود حَسْبُ .

وقد ذكر بعض علماء اللغة ان (العبد) اذا مُلك ولم يملك أبواه ، أو الذي سبي ، ولم يُملك أبواه . وقالوا : هـم عبيد مملكة ، وهو ان يغلب عليهـم ويُستعبدوا وهم أحرار . وفي الحديث : « ان الأشعث بن قيس خاصم أهـل نجران الى عمر في رقابهم ، وكان قـد استعبدهم في الجاهلية ، فلما أسلموا ، أبوا عليه ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنا انما كنا عبيد مملكة ولم نكن عبيد قن [1] . أي ان يغلب عليهم فيستعبدهم وهم في الأصل أحرار .

وذكر علماء العربية ان القن : العبدُ الذي مُلك هو وأبواه ، وان العبد القن الذي ولد عندك ولا يستطيع ان يخرج عنك . وعبد قن خالص العبودة [2] . فالقن إذنْ ، هو العبد المملوك ، الذي تنقل اليه العبودية عن أبيه . وقـد أسلفت ان هذه اللفظة وردت في لغة المسند ، وانها كانت تعني هذا المعنى عندهم أيضاً . ويشبه العبد القن ، العبد الذي يقال له (CERF) عند الرومان . و « القين » : العبد والجمع قيان [3] .

ويعبر عن العبد بلفظة « مولى » أيضاً ، ويراد بها المعتق كذلك . وتؤدي معاني اجتماعيـة أخرى ذكرها علماء اللغة منهـا : الحليف ، والعقيد ، والربّ

١ اللسان (١٠/٤٩٣) ، (ملك) .
٢ اللسان (١٣/٣٤٨) ، (قنن) .
٣ اللسان (ق/ي/ن) ، (١٣/٣٥١) .

والمالك ، والسيد . ويتبين معناها من الاستعمال [1] . وقد كان بمكة وسائر الأمكنة الأخرى من جزيرة العرب عدد كبير من الموالي .

والعبيد هم حاصل الحروب . فإذا وقع انسان أسيراً في غزو او حرب صار ملكاً لآسره ، ان شاء مَنّ عليه ففك رقبته ، وان شاء ملكه فصار عبداً له . يحتفظ به لنفسه ان أراد ، او أن يهديه لغيره فيصير في ملك من أهدي له ، او ان يبيعه ، فيقبض ثمنه ، فتنتقل ملكية العبد الى شاريه . فالسباء هو مصدر مهم من مصادر الرقيق .

ومورد آخر أمدّ الجاهليين بالعبيد ، هو التجارة : تجارة العبيد . وقد اختص بها قوم عرفوا بالنخاسين . يأتون بالرقيق من مختلف الأماكن ويبيعونه . وكانت تجارة رابحة .

ومن العبيد ، قوم كانوا مدينون فلم يتمكنوا من سداد ديونهم فبيعوا رقيقاً . ومنهم من صار رقيقاً لعدم تمكنه من دفع مال يجب عليه تأديته . كالذي روي من تقامر أبي لهب والعاص بن هشام ، على ان من قمر صار عبداً لصاحبه ، ففمره أبو لهب فاسترقه واسترعاه ابله [2] .

ويكون عدد ما يملكه الانسان من الرقيق امارة على الغنى والمنزلة والجاه والقوة . هم قوة لأنهم عُدّة لسيدهم في القتال وفي الدفاع عنه حتى وان كرهوه . وهم خدم له يؤدون له كل ما يطلبه منهم من أعمال ، ولا يخلو منهم بيت . وذكر ان بعض السادات كان يملك المئات من العبيد فلما وفد (ذو الكلاع ملك حمير) على أبي بكر (ومعه ألف عبد دون من كان معه من عشيرته وعليه التاج ، وما وصفنا من البرود والحلل) [3] .

وكان كثير من ملاك الرقيق ذوو قلوب غلاظ ، لا يرحمون عبيدهم ولا يرفقون بهم . واذا شهد العبد غزواً أو حرباً وغنم فلا يعطى حقه له ، ويؤخذ

١ اللسان (و/ل/ي) ، (١٥/٤٠٩) .
٢ الأغاني (٣/١٠٠) .
٣ التنبيه (٢/٢٩٩) ، (باب ذكر خلافه أبي بكر الصديق) .

سهمه ويعطى الى سيده . ولم يكونوا يثقون بأمانة رقيقهم [1] لذلك حقد العبيد على سادتهم ، وانضموا الى أعدائهم ان وجدوا فرصة مؤاتية لهم أملاً منهم باصلاح الحال . ولما حاصر الرسول الطائف نادى مناديه : (أيما عبد نزل فهو حرّ وولاؤه لله ورسوله) فنزل جمع منهم وأسلموا وصاروا أحراراً [2] .

ويذكر علماء اللغة طبقة سمّوها (القطين) ، وهم في عرفهم تبّاع الملك ومماليكه ، والخدم والأتباع . وقالوا أيضاً : ان القطين تبع الرجل ، ومماليكه ، وخدمه [3] .

ويقال للرعية من الناس (السُّوقة) سمّوا بذلك لأن الملوك يسوقونهم فينساقون لهم [4] . وأما (سواد الناس) ، فعامتهم .

وكل من ذكرت من الطبقات الدنيا هم « سوقة » . و « عوام » ، و « سواد » .

ويقال للأخلاط والسفلة من الناس : الأوباش . وهم مثل الأوشاب [5] . وأما الأشابة فأخلاط الناس تجتمع من كل أوب والتأشب التجمع . ويقال : أوباش من الناس وأوشاب . وهم الضروب المتفرقون [6] .

ويذكر علماء اللغة ان أهل اليمن يطلقون على المستضعفين من الناس (مستخمرون) . و (المستخمرون) هم الجيران الضعفاء . من (أخمره الشيء) ، بمعنى أعطاه إياه أو ملكه بلغة اليمن [7] .

ويقال لأوغاد الناس وأرذالهم (الطغام) و (الطغامة) . وذكر ان (طغامة)

١ الأغاني (١/٣٢) ، (١٤/١٢٤١) .
٢ العقد الفريد (٣/٢) .
٣ اللسان (١٣/٣٤٣) ، (قطن) .
٤ ديوان بشر بن أبي خازم (ص ٢٠٠) .
٥ تاج العروس (٤/٣٦١) ، (وبش) .
٦ تاج العروس (٢/١٤٨) ، (أشب) ، (هل ترون أوباش فربش) ، صحيح مسلم (٥/١٧١) ، (فتح مكة) .
٧ اللسان (٤/٢٥٨) ، (خمر) .

و (دغامة) الأحمق . وورد (ياطاسة الأحلام) ، بمعنى من لا عقل له ولا معرفة ، وقيل : هم أوغاد الناس وأسافلهم [1] .

وعرف أوغاد الناس بـ (أولاد درزة) . وذكر ان أولاد درزة : السفلة والسقاط والغوغـــاء من الناس ، كذلك أولاد ترنى . و (أولاد درزة) أيضاً الخيّاطون . ويقال : أولاد درزة هـــم الحاكة ، وهم من أسافل الناس ، كما صرح به المفسرون في قوله تعالى : واتبعك الأرذلون . وابن درزة الدعي ، أو ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعاة ولا يعرف له أب [2] .

أهل الوبر :

ما ذكرته عن المجتمع يتناول الحضر ، أمـــا المجتمع البدوي ، أي مجتمـــع الأعراب ، فمجتمع ساذج ليس في تكوينه تعقيد ولا تعدد طبقات . صقلت البادية أهلها ، وبسطت لهم أسلوب الحياة ، وقلصت من الفروق الطبقية ، فلا تجـــد فيها ما نجده عند الحضر من اختلاف كبير في منازل الناس .

وكل ما هنالك من طبقات : سادات القبائل ، وهم رؤساء القبيلة وأشرافها ، وأحدهم (سيد القبيلة) أو رئيس القبيلة . ثم أشراف العشائر ومتفرعاتها . ولهم أموال ، ورقيق يخدمونهم . أما سواد القبيلة ، فهـــم منتشرون في أرض القبيلة على هيأة مجتمعات صغيرة متفرقة مبعثرة ، لضيق العيش الذي لا يساعد على تجمع أفراد القبيلة تجمعاً كبيراً في محل واحد ، تظهر فيه الحرف وتتنوع الأعمال التي تكون ضرورية لمجتمع الحضر .

ولسادات القبائـــل المال ، وهي : الإبل . يشربون من البانهـــا ، ويأكلون لحومها ، وهم الذين في استطاعتهم الذهاب الى القرى والمدن ومواطن الحضارة للعيش فيها زمناً ، ولشراء ما يجدون في أسواقهـــا مما يحتاجون اليه من سلع .

---

١ اللسان (٣٦٨/١٢) ، (صادر) ، (طغم) ، تاج العروس (٣٨٠/٨) ، (طغم) .

٢ تاج العروس (٣٥/٤) ، (درز) ، (أبناء درزة كناية عن السفل والسقاط ، ويقال لهم : أولاد درزة . قال المبرد : هم خياطون من أهل الكوفة خرجوا مع زيد بن علي)، النيسابوري ، ثمار (٢٧١) .

وللتمتع بمناظر الحضارة . ولزيارة الملوك والحكام . والساكن منهم على مقربة من الحضر ، يخالطهم وقد يشتري له ملكاً يعيش فيه بينهم . فاذا جاء الربيع ، وحمد وقت البادية عاد الى وطنه ، ليرعى ماله ، ولينظر في شؤون قبيلته .

وقد استخدم الاعراب (العبيد) ايضاً ، ولكنهم لم يكثروا من استخدامه استخدام اهل الحضر له ، لعدم وجود حاجة كبيرة عندهم اليه . وقد كان عبيد الاعراب اكثر حرية وأحسن حالاً من عبيد اهل الحضر ، ذلك لأن البادية لا تعرف الاعمال المرهقة ، ولا الحرف الكثيرة التي فرضتها الحضارة على اهل الحضارة ، لذلك صارت الاعمال التي يقوم بها عبيد الاعراب اقل بكثير من الاعمال التي يقوم بها عبيد اهل القرى ، وصار العبد في البادية الصق بصاحبه من مثيله في القرية ، حتى صار وكأنه جزء من اهل البيت الذي اشتراه أو ورثه .

بيوت العرب :

لقد تبين لنا مما تقدم ان العرب وان بدوا وكأنهم سواسية كأسنان المشط ، الكل متساوون في المعاملة لا فرق عندهم بين غني وفقير ، كل معتز بنفسه فخور بفعاله ، الا انهم مع ذلك وفي الواقع طبقيون ، لكل طبقة عرف وتقاليد ، فبيوتهم تتفاوت عندهم في الشرف والمكانة ، هناك بيوت اشتهرت في القبيلة وحافظت على فعالها ومكانتها ، وكانت تتفاخر وتتباهى على غيرها فلا تزوّج احداً من ابنائها او بناتها الا لمن كان كفؤاً لها .

وقد تحدث اهل الاخبار والانساب عن بيوت برزت في القبائل وتفوّقت على غيرها في ناحية من نواحي الفضل والفخر . فذكر ابن الكلبي : مثلاً ان العدد من تميم في بني سعد ، والبيت في بني دارم ، والفرسان في بني يربوع ، والبيت من قيس في غطفان ، ثم في بني فزارة ، والعدد في بني عامر ، والفرسان في بني سليم ، والعدد من ربيعة في بكر ، والبيت والفرسان في شيبان [1] .

وكان يقال : اذا كنت من تميم ففاخر بحنظلة ، وكاثر بسعد ، وحارب بعمرو ،

١ العمدة (٢/١٩١) .

واذا كنت من قيس ففاخر بغطفان ، وكاثر بهوازن ، وحارب بسليم ، واذا كنت من بكر ففاخر بشيبان ، وكاثر بشيبان ، وحارب بشيبان [1] .

وقد اشتهرت ثلاثة بيوت شهرة خاصة في الجاهلية القريبة من الاسلام ، وهي : بيت بني زرارة ، وهم من (بني عبد الله بن دارم) في تميم ، وبيت (بني بندر) ، وهم من (بني فزارة) من (بني قيس) ، وبيت (ذي الجدّين) ، وهم من (بني شيبان) من (بكر بن وائل) [2] .

وجعل (أبو عبيدة) بيوت العرب ثلاثة : فبيت قيس في الجاهلية بنو فزارة ، ومركزه بنو بدر ، وبيت ربيعة بنو شيبان ، ومركزه ذو الجدين ، وبيت تميم بنو عبد الله ابن دارم ، ومركزه بنو زرارة [3] . وذكر انه قال : ليس في العرب اربعة اخوة انجب ولا أعدّ ولا اكثر فرساناً من بني ثعلبة بن عكابة . وكان يقال له الأغر والحصن . وبنوه : شيبان وذهل وقيس وتيم الله . وفارس غطفان الربيع بن زياد العبسي ، وفاتكها الحارث بن ظالم ، وحكمها هرم بن قطبة ، وجوادها هرم بن سنان المريّ ؛ وشاعرها النابغة الذبياني . وفارس بني تميم عتيبة بن الحرث بن شهاب احد بني يربوع . وفارس عمرو بن تميم طريف بن تميم العنبري . وفارس دارم عمرو بن عدس ، وفارس سعد فدكي بن المنقري ، وفارس الرباب زيد الفوارس ابن حصين الضبيّ ، وفارس قيس عامر بن الطفيل ، وفارس ربيعة بسطام ابن قيس [4] .

وقال ابو عمرو بن العلاء : بيت بني سعد الى الزبرقان بن بدر من بني بهدلة بن عوف بن كعب بن سعد ، وبيت بني ضبة بنو ضرار بن عمرو الرديم ، وبيت بني عديّ بن عبد مناة آل شهاب من بني ملكان ، وبيت التيم آل النعمان ابن جساس [5] .

وزعم (ابن الكلبي) ان آل حصن الفزاريين ، وآل الجدّين الشيبانيين ،

---

١ العمدة (١٩٢/٢) ، بلوغ الأرب (١٨٩/٢) .
٢ الكامل (٣٥/١) .
٣ العمدة (١٩٢/٢) .
٤ بلوغ الأرب (١٨٩/٢) .
٥ العمدة (١٩٢/٢ وما بعدها) .

وآل عبد المدان الحارثيين ، هم اعلى بيوت العرب . ويقال : بيت تميم في بني حنظلة ، اي شرفها [1] . فهذه البيوت هي البيوت البارزة المسلم لها بالسيادة والشرف عند الجاهليين على رأي (ابن الكلبي) .

وذكر (الجمحيّ) : ان الفروسية في اليمن في بني زبيد بن عمرو بن معديكرب . وان شاعر اليمن امرؤ القيس ، وأن بيتها في كندة : في الأشعث ابن قيس . لا يختلف في هذا وانما اختلف في نزار . وقال اخباريّ : كان بيت قيس في آل عمرو بن الظرب العدواني ، ثم في غني في آل عمرو بن يربوع ، ثم تحوّل الى بني بدر . فجاء الاسلام وهو فيهم . وقال الاخفش : فرعا قريش هاشم وعبد شمس . وفرعا غطفان بدر بن عمرو بن لودان وسيّار بن عمرو بن جابر . وفرعا حنظلة رياح وثعلبة ابنا يربوع . وفرعا ربيعة بن عامر بن صعصعة جعفر وأبو بكر ابنا كلاب . وفرعا فضاعة عذرة والحرث بن سعد [2] .

وقد ذكر (الجاحظ) ان هناك قبائل في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة . (فمن القبائل المتقادمة التي في شطرها خير كثير ، وفي الشطر الآخر شرف وضعة ، مثل قبائل غطفان وقيس عيلان ، ومثل فزارة ومرّة ، وثعلبة ، ومثل عبس ، وعبد الله بن غطفان ، ثم غنيّ وباهلة ، واليعسوب والطفاوة . فالشرف والخطر في عبس وذبيان ، والمبتلى والملقّى والمحروم والمظلوم ، مثل باهلة وغنيّ . ومن هذا الضرب تميم بن مرّ ، وثور وعكل ، وتميم ومزينة . ففي عُكل وتيم ومزينة من الشرف والفضل ما ليس في ثور) [3] .

وذكر (الجاحظ) ان بعض الناس تكبّروا على غيرهم ، لما وجدوا لأنفسهم من الجاه والثراء والمكانة ، ومنهم : بنو مخزوم ، وبنو أمية ، وبنو جعفر بن كلاب ، وبنو زرارة بن عدس . فلم يكونوا كبني هاشم في تواضعهم ، وفي انصافهم لمن دونهم [4] .

الشرف :

وللشرف مقام كبير عند العرب . واذا دخل شريف قوم في مجتمع جلس في

١ تاج العروس (١/٥٣٠) ، (ست) .
٢ بلوغ الأرب (٢/١٩٠) .
٣ الحيوان (١/٣٥٩ وما بعدها) ، (هارون) .
٤ الحيوان (٦/٧٢) ، (هارون) .

المقام اللائق به . ويلعب هذا المقام دوراً كبيراً في مجالس الملوك وفي مجالس سادات القبائل وفي اندية الحضر . واذا لم يأخذ الشريف مكانه ، كأن يجلس في مجلس هو دون مجلسه اللائق بمقامه بالنسبة الى الحاضرين ، عدّ ذلك اهانة له ، ومعاملة سيئة متعمدة . قد تأتي بأوخم النتائج اذا كان الشريف من اصحاب الحول والطول . ولهذا كان الملوك خاصة وسادات القبائل يراعون حرمة المكان ، ويُعيّنون للقادم مكانه ، بأسلوب لطيف لا يثير مشاعر الجالسين ولا يشعرهم بأنهم فصدوا اهانتهم ان طلبوا من القادم التقدم على الحاضرين ، والجلوس على مقربة منهم . وذلك على حسب مكانته ومنزلته . والغالب أن ينص على المكان الذي سيجلس به .

والشرف في العرف الجاهلي ، هو الحسب بالآباء . والشرف والمجد عندهم لا يكونان الا بالآباء . اما الحسب والكرم فيكونان ، وان لم يكن له آباء لهم شرف [1] . ولهذا حرصوا على استمرار الشرف في الأسر الشريفة ، وعلى امدادها بالحيوية والنشاط حتى يبقى الشرف متألقاً لامعاً فيها . ومن ذلك الزواج المكافىء والفعال الحميدة والمحافظة على سجايا الأسرة الطيبة ، والأعراف المثالية ، والتمسك بالنسب وعدم تلويثه بدم من هو دونهم في الشرف ، ورعاية ذلك النسب وحفظه ، ليكون نسب كل شريف بيّناً واضحاً ظاهراً للناس .

ومن الشرف : التخلق بالأخلاق الحميدة ، وعمل الامور المُحبّبة المفيدة التي تخلد الذكر لصاحبها وتجعل الناس يلهجون باسمه من ذلك .

العرض :

والعرض في معنى الشرف ، ويتجلى في مظاهر متنوعة يراد بها صيانة السمعة وطرد سوء الظن وما يخدش شرف الانسان من سوء او مكروه . وهو لا يكتفي بالدفاع عن عرضه ، بل يلزم نفسه ايضاً بالدفاع عن عرض قبيلته وعن عرض من يدخل في جواره او في حلفه ، لأن اعراضهم عرضه . فهو يلزم نفسه بلوازم كثيرة ثقيلة ، يحاول مهما كلفه الأمر الوفاء بها خشية العار . وهو في سبيل الوفاء بالتزامات العرض يفعل ما يشاء ، ويدخل في ذلك القتل والعنف في سبيل الدفاع عن الالتزامات التي ألزم نفسه بها في سبيل حماية العرض [2] .

---

١ اللسان (١٦٩/٩) ، (شرف) .
٢ بلاشير (ص ٣٨ وما بعدها) .

واذا مُسّ عرض امرىء بأذى هاج وأهاج مَنْ هو من ذوي دمه ولحمه ، للاقتصاص ممن دنس عرضه . وهو لا يهدأ حتى يأخذ بثأره ممن داس على عرضه . فثأر العرض مثل ثأر القتـــل ، لا يهدأ صاحبه ولا يهجع الا اذا اخذ بثأره ممن تجاوز على عرضه . والغالب في عقوبة هذا الثأر الذبح . اي بقطع الرأس عن الجسد . يذبح حتى في حالة اذا كان قد توفي من طعنة بخنجر يقضي عليه ، فانه يذبحه عندئذ . ويكون هذا غسلاً للعار الذي الحقه ذلك المتجاسر بعرض القاتل .

المروءة :

وتتمثل المثل الجاهلية العليا في (المروءة) ، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية . ومن المروءة : الحلم ، والصبر ، والعفو عند المقدرة ، وقرى الضيف ، واغاثة الملهوف ، ونصرة الجار ، وحماية الضعيف . فاذا تمثلت امثال هذه السجايا في رجل ، كان كاملاً ، عظيم الشأن في قومه . والمروءة عند الجاهليين كالدين عند المسلم .

وقد ورد ان المروءة الا تفعل في السرّ امراً وأنت تستحي ان تفعله جهراً [1] فهي اقصى ما تكون من اخلاق في الرجل الكامل الشجاع . وقد اقرها الاسلام في جملة ما اقره من فضائل الجاهلية ، ورد : الدين ، المروءة ، ولا دين الا بالمروءة [2] .

والشهامة هي من صفات السيّد الشريف النبيل . والشهم ، هو السيّد النجد ، الذي اذا دُعي أنجد ، واذا طلب أجاب [3] .

الكملة :

وتحدث اهل الاخبـــار عن جماعة من الجاهليين قالوا انهم عرفوا بين قومهم بالكملة . منهم (بنو زياد العبسيون) ، وهم أنس الحِفاظ ، ويقال له ايضاً أنس الفوارس ، وعمارة الوهاب ، وربيع الكامل ، وقيس الجواد . وقيل : ربيع الحِفاظ ، وعمارة الوَهّاب ، وأنس الفوارس ، امهم فاطمة بنت الخُرشب الانمارية [4] .

---

١ اللسان (١/١٤٩) ، (١/١٥٤ وما بعدها) ، (صادر) ، (مرأ) .
٢ Muh Stud , I, S , 14
٣ تاج العروس (٨/٣٦١) ، (شهم) .
٤ العمدة (٢/١٩٧ ، المحبر (٣٩٨) .

وكان (الربيع بن زياد العبسي) المعروف بالكامل ، ممن ينادم الملك النعمان، ويكثر عنده ، ويتقدم على من سواه . وينزله في قبـــة يضربها له . حتى أفسد (لبيد) الشاعر ، وكان إذ ذاك غلاماً ما كان بينهما من ودّ في خبر ترويـــه كتب الأدب والأخبار [1] .

وعرف قوم بـ (الأكابر) ، قيل هم : شيبان ، وعامر ، وجليحـــة ، والحارث بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل [2] .

والإنسان الكامل عند الجاهليين وفي أول الاسلام ، هو الذي يكتب بالعربية ، ويحسن العوم والرمي . وقد لقب رجال عديدون بهذا اللقب ، منهم : (أوس ابن خولي) ، وهو من المخضرمين [3] . قال (ابن سعد) عنه : (وكان أوس ابن خَوَلي من الكَمَلة ، وكان الكامل عندهم في الجاهلية وأول الاسلام الذي يكتب بالعربية ويحسن العوم والرمي) [4] .

من الخصال الحميدة :

ومن الخصال الحميدة عنـــد العرب : النخوة . والنخوة في اللغة الافتخار والتعظم ، والنخوة الكبر والعظمة . ومن صفات العرب انها كانت تتنحى من الدنايا أي تستنكف [5] .

الكرم :

ومن الأعراف عرف إكرام الضيف ، وتقديم حق الضيافة له مهما كانت درجة تلك الضيافة ومنزلة المضيف . يقدم له ما يقدر عليه وما يتسع حاله له . والضيافة درس من الدروس التي لقنتها الطبيعة للإنسان أيضاً . لقنته ان الانسان مهما كان

---

١ المرتضى ، أمالي ١ / ١٨٩ وما بعدها) ، المعارف (٨٢) .
٢ العمدة (٢/١٩٦) .
٣ ابن سعد ، الطبقات (٣/٥٤٢) ، الاصابة (١/٩٥ وما بعدها) ، (رقم ٣٣٤) .
٤ ابن سعد ، الطبقات (٣/٥٤٢) .
٥ تاج العروس (١٠/٣٦٢) ، (نخا) .

فقيراً ، عليه ان يقدم ما عنده لمن يأتيه من ضيف قريب أو غريب ليضيفه ، إنقاذاً لحياته من قحط البادية ومن شحها . فليس في البادية ملجأ يلجأ الفرد اليه غير الخيام المضروبة هنا وهناك ، ملاجىء مهما قيل فيها ، لكنها قوارب النجاة أو جزر صغيرة في محيط واسع شاسع . لا يطمع الانسان منها إلا في الاستراحة وإمضاء أمور سفره الى الموضع الذي يريده ، واذا امتنع صاحب الخيمة عن أداء حق الضيافة ، عرض حياة ضيفه للخطر ، وعرّض حياته نفسه الى ذلك الخطر ، فلا بد ان تنزل به في يوم ما حاجة ما ، ولا بد ان يقطع البادية مراراً في حياته بحثاً عن رزق ، فإذا بخل ولم يضيّف غيره ، لم يستضيفه الآخرون فيقع في ضنك قد يكون به هلاكه وهلاك من معه .

والعرف ان الضيافة ثلاثة أيام وثلاث ليال ، فاذا انتهت المدة ، سقط حق الضيافة من رقبة (المضيف) إلا اذا جددها ، وزاد عليها . ويعبر عن منزلة الضيف عند المضيف بجمل وتعابير تعبر عن ترحيب المضيف بضيفه ، مثل جملة : (بيتي بيتك) ، وعلى الضيف بالطبع ان ينأدب بأدب الضيافة ، فيصون حرمة بيت مضيفه ، فلا يسرق منه ، ولا ينظر الى العائلة بسوء وألا يقوم بأي عمل يخل بعرف الضيافة [1] .

ونظراً الى ما للمعابد من حرمات ، اعتبر الوافدون عليها لزيارتهـــا والتقرب لأصنامها ضيوفاً لها ، وعدّوا الذين يعتدون عليهم خارجين عن العرف مارقين بالنسبة لمجتمعهم . فمن كان يفد الى مكة يقال له (ضيف الله) ، وقيل للحُجّاج (ضيوف الكعبة) ، فلا يجوز الاعتداء عليهم ، ومن وقع اعتداء عليه ، يجد حتماً من بين أهل مكة من يدافع عنه [2] .

والجود ، وهو السخاء صفحـــة أخرى من صفحات الكرم . وهو ان يمطر الرجل غيره بمعروفه ، وان يجود على غيره بما هو عنده [3] . وقـــد بالغ بعضهم بجوده حتى ضرب به المثل . ومن هؤلاء حاتم الطائي . وهو (حاتم بن عبد الله ابن سعد بن الحشرج بن امرىء القيس بن عديّ بن أحزم) من قبيلة طيء .

١ Smith, Kinship, P. 70.

٢ Smith, Kinship, P. 41, Hastings, P., 427

٣ اللسان ، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) .

وقد ضرب به المثل في الجود والسخاء ، فقيل (أجود من حاتم) ، ورووا عنه قصصاً كثيراً في الجود والسخاء ، يرينا ان الجود فيه سجية ، نبت فيـــه مُذْ كان صغيراً ، فقد روي انه اختلف مع والده ، وهو صغير ، لأنه فرق إبله وغنمه وكان يرعى بها على قوم مرّوا به ، فيهم : عَبيد بن الأبرص ، وبشر ابن أبي خازم ، والنابغة الذبياني ، فطرده أبوه ، وقال له : إذن لا أساكنك بعدها أبداً ولا آويك ، فقال حاتم : إذن لا أبالي [1] .

ويذكر : انه كان إذا أهل شهر رجب نحر في كل يوم عشرة من الإبل ، وأطعم الناس ، وانه كان يقول لغلامه يسار ، اذا اشتد البرد وكلب الشتاء : أوقد ناراً في يفاع من الأرض : لينظر اليها من أضل الطريق ليلاً فيقصد نحوه [2] . وكان يوقد نار القِرى ، ليقصدها من يريد الضيافة من الناس . وذكروا انـــه كانت لحاتم قدور عظام بفنائه لا تنزل عن الأثافي ، الى غير ذلك من أخبار في كرمه وسخائه [3] .

وذكر عنه انه قَسم ماله بضع عشرة مرّة ، وانه مرّ في سفر له على بني عبزة ولهم أسير في القدّ ، فاستغاث به ، ولم يحضره فكاكه ، ففاداه وخلاّه ، وأقام مقامه في القدّ حتى أُدي فداؤه . ورووا انه ذبح فرسه ، ووزع لحمهـــا على جيرانه ، لأن امرأة كانت جارة له جاءت اليه مستغيثة بـــه ، تقول له : أتيتك من صبية يتعاوون من الجوع ولم يكن لديه ما يعطيها ، فذبح فرسه ، مع انه وعائلته كانوا جياعاً مثل صبيتها ، فلما مانعت زوجته في ذبـــح فرسه ، قال لها : إن هذا للُؤم ان تأكلوا وأهل الحيّ جياع [4] .

وينسب أهل الأخبار اليـــه شعراً ، في جملته قصيدة تتعلق بالكرم وبمكارم الأخلاق وبالحكم [5] ، وقد جمعوا من شعره ديوانـــاً ، وذكروا انه من الشعر

---

١ بلوغ الأرب (١/٧٢ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٧٣ ، ٧٧ وما بعدها) ، العقد الفريد (١/٣٣٢) .
٣ ثمرات الأوراق للحموى (حاشية على المستطرف) ، (١/١٢٧) ، الشعر والسعراء (١٢٣ وما بعدها) .
٤ الثعالبي ، ثمار القلوب (٩٧ وما بعدها) .
٥ بلوغ الأرب (١/٧٩) .

البليغ الجيد[1] .

وضرب المثل بجود (كعب بن مامة الإيادي) . ويذكر أهل الأخبار انه هلك بسبب جوده ، فقد مات عطشاً ، لأنه أعطى الماء غيره ، فمات هو من العطش[2] . وقد فضله (الجاحظ) ورجّحه على (حاتم الطائي) في الجود . ذلك لأن حاتماً كان يجود على غيره بماله ، أما (كعب) ، فقد بذل النفس حتى أعطبه الكرم ، وبذل المجهود في المال ، فساوى حاتماً من هذا الوجه وباينه ببذل المهجة . فهو على رأيه فوقه في الكرم بمنازل ودرجات[3] . وذكر ان من عادة (كعب بن مامة) انه اذا جاوره رجل قام له بكل ما يصلحه وعياله ، وحماه ممن يريد . وان هلك له بعير أو شاة أو عبد أخلف عليه ، وان مات وداه ، فجاوره (أبو دواد الإيادي) الشاعر ، فكان يفعل به ذلك ويزيد في برّه ، فصارت العرب اذا حمدت جاراً لحسن جواره ، قالوا: كجار أبي دُواد[4] . وقد افتخرت به إياد . وعدّ من مفاخرها[5] . وذكر (عبد الملك بن مروان) إياداً ، فقال : هم أخطب الناس لمكان قس ، وأسخى الناس لمكان كعب ، وأشعر الناس لمكان أبي دواد ، وأنكح الناس لمكان ابن الغز[6] .

و (أوس بن حارثة بن لأم الطائي) . يذكرون ان (النعمان بن المنذر) حباه حلة نفيسة بحضور وفود العرب من كل حيّ ، وكانوا قد اجتمعوا عنده ، فقال لهم : (إني ملبسٌ هذه الحلة أكرمكم) فألبسه النعمان الحلة[7] . ويذكرون انه تمكن من الشاعر (بشر بن أبي خازم) ، وكان (أوس) قد نذر لئن

---

١ بلوغ الأرب (١/٧٥) ، تاريخ الادب العربي ، لـ (كارل بروكلمان) ، (١/١١١ ، ١١٢ ، ١١٣) .

٢ بلوغ الأرب (١/٨١) ، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) ، ثمرات الأوراق (١/١٢٧) ، (حاشية على المستطرف) .

٣ الثعالبي ، ثمار (١٢٦) .

٤ قال قيس بن زهير :

أطوف ما أطوف ثم آوي الى جار كجار أبي دواد

الثعالبي ، ثمار (١٢٧ وما بعدها) .

٥ الثعالبي ، ثمار (١٢٢) .

٦ الثعالبي ، ثمار (١٤٢) .

٧ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .

ظفر به ليُحرِقنَّه ، لأنه أسرف في هجائه ، حتى تجاسر فهجا أمه (سُعدى) . فلما ظفر به ، أشارت (سُعدى) على (أوس) بأن يمنّ على بشر ، فخلى سبيله وأكرمه وأحسن كسوته وحمله على نجيبه وحباه ، فصار (بشر) يمدحه [1] ويذكر أهل الأخبار ، ان أوساً وحاتما وفدا على (عمرو بن هنـــد) ، فأراد امتحانهما ، والوقوف على رأي أحدهما في الآخر ، فما انتقص واحد منهما الآخر . فقال عمرو : والله ما أدري أيكما أفضل ! وما منكما إلا سيد كريم [2] .

و (هرم بن سنان المُريّ) ، من أجواد الجاهلية أيضاً . وهو سيد غطفان . وكان والده سيّد غطفان كذلك . وقد مدحه الشاعر زهـــير بن أبي سلمى في أبيات لا يزال الناس يحفظونها ويذكرونها عن هرم وقد كان هرم أعطاه مالاً كثيراً من خيل وإبـــل وثياب وغير ذلك ممـــا أغناه ، وفيه ورد المثل : (أجود من هرم) . وقد أدركت بنت له أيام عمر فسألها عن أبيها وعن صلته بزهير [3] .

قال (أبو عبيدة) : (أجواد العرب ثلاثـــة : كعب بن مامة ، وحاتم الطائي ، وكلاهما ضُرب به المثل ، وهرم بن سنان صاحب زهير) [4] .

وقد ضرب المثل بجود (عبد الله بن حبيب العنبري) فقيل : (أقرى من آكل الخبز) . ذكر انه سُمّي آكل الخبز ، لأنـــه كان لا يأكل التمر ولا يرغب في اللبن . وأكل الخبز ممدوح عند العرب . وهو عندهـــم من علامات الغنى والمال . وعرف (ثور بن شحمة العنبريّ) بالجود كذلك ، وقـــد كان قومه (بنو العنبر) اذا افتخروا ، قالوا : (منّا آكل الخبز ، ومنـــا مجير الطير) [5] . وقد عرف (ثور بن شحمة) بـ (مجير الطير) لأنه كان يشفق على الطيور فيطعمها ويشبعها لجوده وكرمه .

واشتهر (عبد الله بن جُدعان) بجوده كذلك ، وقد كان يسمى بـ (حاسي الذهب) ، لأنه كان يشرب في إناء من الذهب ، وقيل : (أقرى من حاسي

١ بلوغ الأرب (١/٨٣ وما بعدها) .
٢ الثعالبي ، ثمار (١١٨) .
٣ بلوغ الأرب (١/٨٤ وما بعدها) ، ثمرات الأوراق (١/١٢٧) حاشية على المستطرف، العقد الفريد (١/٣٣٧) ، نهاية الأرب (٣/٢٠٨) ، الشعر والشعراء (١٢٣) .
٤ الشعر والشعراء (١٢٣) .
٥ بلوغ الأرب (١/٨٧) .

الذهب) . وكان يجود على (أمية بن أبي الصلت) ، ويقري أهل مكة ومن يأتي اليها ، وله جفنة كبيرة يأكل منها الناس ، ويصنع لهم (الفالوذج) ، ولم يكن معروفاً قبله بمكة ، فلما كان بالعراق ، أكله واستذوقه ، وجاء منه بطبّاخ ليطبخ له (الفالوذج) . وهو من (بني تيم) . وكان ممن حرم الخمر على نفسه بعد ان كان بها مغرى ، لما رأى فيها من ضرر واسفاف يلحق بشاربها . وذكر انه لما كَبُرَ وهِرِم ، أراد قومه ان يمنعوه من تبذير ماله ، ولاموه في العطاء ، فكان يدعو الرجل ، فإذا دنا منـــه ، لطمه لطمة خفيفة ، ثم يقول له : قم فانشُدْ لطمتك واطلب ديتهـــا ، فاذا فعل ، أعطته بنو تيم من مال ابن جُدعان [1] . وقد ضرب المثل بفالوذج ابن جُدعان في أطايب الأطعمة [2] .

وقد عدّ في (مطعمي قريش) ، وهم سادات قريش وأشرافهـــا ممن كان يطعم الناس ويفتح بيته للضيوف ، ولا يمنع جائعاً من دخول داره . كهاشم بن عبد مناف . وكانت له جفان يأكل منها القائم والراكب ، اذا وقع في احداها صبيّ غرق . فجرى بها المثل في العظم [3] .

وللتعبير عن إسراف الأجواد في جودهم ، وفي قراهم الضيوف ، نعت أحدهم بـ (مطعم الطير) ، كناية عن كرمهم ، وعن كثرة طعامهـــم المهيأ ، حتى كانت الطيور تشارك الضيوف في أكل الزاد ، وهو كثير . وقد نعت (حسان ابن ثابت) عمه (خالد بن زيد) المعروف بـ (ابن هند) ، وهو من (بني النجّار) ، بـ (مطعم الطير) ، كناية عن انه كان ينحر الإبل للأضياف ، فيأكل منها الناس والطير [4] . ونعتت (ليلى بنت الخَطِيم بن عديّ بن عمرو) ، وهي أخت الشاعر (قيس بن الخطيم) أباها بأنه (مطعم الطير ومباري الريح) ، وذلك أمام الرسول [5] .

---

١ بلوغ الأرب (٨٧/١ وما بعدها) ، نهاية الأرب (٢١٧/٣) ، مجمع الأمـــال (٧٢/٢) ، الثعالبي ، ثمار (٦٧٢) ، البيـــان والتبيين (١٢٤/٣) ، الأغاني (٣٣٤/٨) ، نسب قريش (٢٩١) .

٢ الثعالبي ، ثمار (١٢٣) ، الحيوان ، للجاحظ (٤٠٣/٣) ، عيون الاخبار (٢٦٨/٣) .

٣ الثعالبي ، ثمار (٦٠٩) ، البخلاء (٢١٠) ، سمط النجوم ، للعصامي (٢٠٠/١) .

٤ البرقوقي (ص ١١٧) .

٥ المحبر (ص ٩٦) .

ومن الأجواد من كان يجود في أوقات الشدة والحاجة بصورة خاصة ، في مثل حلول الجدب . وقد عرف نفر من العرب بـ (مطاعيم الريح) ، وذلك لأنهم كانوا يطعمون اذا هبت ريح الصبا ، لأنها لا تهب إلا في جدب ، فمدحوا . ومن هؤلاء : (كنانة بن عبد يا ليل الثقفي) عم أبي مِحْجَن [1] . وزعم (ابن الأعرابي) ان (مطاعيم الريح) ، هم أربعة . منهم : كنانة ابن عبد يا ليل الثقفي المذكور و (لبيد بن ربيعة) [2] .

ويقال للرجل الذي يهتز للمعروف والعطية (الأريحي) ، وهو السخي . و (الأريحية) السخاء [3] .

وقد ضرب المثل بجماعة من الجاهليين عرفوا بجودهم وكرمهم ، حفظ العرب ذكرهم لجودهم ، وما زالوا يحتفظون حتى اليوم ، يتذاكرونه ويروونه في كتاباتهم وفي أنديتهم وفي كلامهم . من هؤلاء ثلاثة سُمّوا (زاد الراكب) و (أزواد الركب) ، لأنهم كانوا اذا سافروا مع قوم لم يتزودوا معهم . كانوا من أهل مكة هم : أبو عمرو بن أمية (مسافر بن أبي عمرو بن أمية)، وأبو أمية بن المغيرة المخزومي ، والأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العُزّى (زمعة بن الأسود بن المطلب) . وقد ضرب بهم المثل ، فقيل : أقرى من زاد الراكب [4] .

وقد كان (عبد الله بن أبي أمية) ، المعروف بـ (زاد الركب) شديد الخلاف على المسلمين ، ثم خرج مهاجراً من مكة يريد النبي ، فلقيه بـ (الصلوب) فوق العرج ، فأعرض عنه رسول الله ، ثم عفى عنه [5] .

وفي معنى (زاد الركب) معنى (جفنة الركب) ، والجفنة : الرجل

١ بلوغ الأرب (١/٩١ وما بعدها) .
٢ بلوغ الأرب (١/٩١ وما بعدها) .
٣ اللسان (٢/٤٦٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (روح) .
٤ مجمع الأمثال (٢/٧٢) ، اللسان (٣/١٩٨) ، (صادر) ، (زود) ، المحبر (١٧٧ ، ٤٥٧) ، تاج العروس (٢/٣٦٦) ، (زاد) ، نسب قريش (٣٠٠، ٣١٥)، الثعالبي ، ثمار القلوب (١٠٣) .
٥ نسب قريش (ص ٣١٥ وما بعدها) .

الكريم . قيل له : (جفنة الركب) ، لأنه كان مطعاماً يضع جفنته ويطعم الناس فيها ، ومن يكون معه في ترحاله . فسمّي باسمها [1] .

وكانت العرب تقول : السفر ميزان القوم ، كأنه يزنهم بأوزانهم ويفصح عن مقاديرهم فى الكرم واللؤم [2] . إذْ يتبين الكريم من اللئيم في سفره . فاللئام اذا ما سافروا ضجروا ، لخوفهم من تقديم ما عندهم الى من هم دونهم من فقير ومحتاج ، أما الكريم ، فإنه لا يبالي في سفره فيعطي وينفق ويساعد من يسافر معه بما يجود به عليهم . فهو على عكس اللئيم فرحٌ بسفره هذا مستبشر .

وزعم الأخباريون ان (سويد بن هرمي بن عامر الحميري) ، كان أول من وضع الأرائك وسقى اللبن والعسل بمكة [3] . ومعنى هذا انه أول من وضع الأرائك لراحة الناس في الجاهلية ، ولعلّهم قصدوا أرائك وضعت في الحرم لجلوس الناس عليها . كما ذكروا ان (أبا أمية بن المغيرة المخزومي) و (أبا وادعة بن ضبيرة بن سعيد بن سعد بن سهم) وكانا يسقيان العسل بمكة ، بعد سويد بن هرمي [4] . وقد كان (عديّ بن نوفل) يسقي الحجيج اللبن والعسل على ما ذكره أهل الأخبار [5] . وقد عدّت السقاية من مفاخر قريش .

وقد كان من عادة الأجواد ايقاد النار في الظلام ليراها الغريب والمحتاج والجائع من مسافة بعيدة فيفد اليها ، فيجد له من يقريه ويقدم له ما يحتاج اليه من طعام . ويقال لها (نار القرى) و (نار الضيافة) . وهي نار توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل . وكانوا يوقدونها على الأماكن المرتفعة ، لتكون أشهر. حتى زُعم ان منهم من كان يوقدها بالمندلي الرطب ، ليهتدي اليها العميان ، بشم رائحة الطيب التي تفوح منها عند الاحتراق . وهي من أجل الأعمال عند العرب . وقد ذكرت في الشعر الجاهلي [6] .

---

١ اللسان (١٣/٩٠ وما بعدها) ، (صادر) ، (جفن) .
٢ الثعالبي ، ثمار القلوب (٦٨٨) .
٣ المحبر (ص ١٧٦ وما بعدها) .
٤ المحبر (١٧٧) .
٥ نسب قريش (١٩٧) .
٦ بلوغ الأرب (٢/١٦١) .

ويعدّ الشتاء محكّاً للأجواد ولكرام الأنفس. فالشتاء عدوّ الفقير، يؤلمه ببرده ويوجعه بفقره ويضيف آلاماً على آلامه. فخيمته الممزقة البالية، لا تقيه من رياح ولا من مطر ولا من برد. والصيد يختفي ويقلّ، والاعشاب تزول، فلا يجد الفقير امامه سوى ما ادخره من قوت ليعيش عليه. فاذا اكله او كان قليلاً، فليس امامه من ملجأ سوى الاستجارة بأهل الجود والسخاء. ممن كان اذا جاء الشتاء ادنوا اليهم الناس وأطعموهم، فيقتلون بذلك جوع الشتاء. ولهذا عرف الواحد منهم بـ (قاتل الشتاء) [1].

وغاية الجود ان يجود الانسان بأعز ماله لغيره، يقال: (انه لمنحار بوائكها، اي ينحر سمان الإبل)، وهو للمبالغة، يوصف للجود [2]. فهو ليس من اولئك الذين يبخلون بمالهم العزيز، فينحرون الهزيل من الإبل، حرصاً على العزيز، بل يقدم اقصى ما عنده لضيوفه.

ويعد العرب (إقراء الضيف) و (الرفادة): (رفادة الحج) في جملة (ارث ابراهيم واسماعيل). ويدخل اهل الاخبار في جملة هذا الإرث: تعظيم الحرم ومنعه من البغي فيه وقمع الظالم ومنع المظلوم [3]. فالكرم اذن من السنن القديمة الموروثة عن سنة ابراهيم على اهل الاخبار.

ولا يعدّ الكريم كريماً اذا وهب ماله في سبيل غرض. فمن وهب المال لجلب نفع او دفع ضرر او خلاص من ذم فليس بكريم [4].

ويقال للعطيّة الجزيلة (الدسيعة). ويقال للجواد، هو ضخم الدسيعة، اي كثير العطيّة. وقيل هي المائدة الكريمة والجفنة على سبيل المجاز [5]، لما عرف به الاجواد من تقديم الطعام للأضياف. ويقال للجواد المعطاء السيد الحمول: (الخضرم)، تشبيهاً بالبحر الخضرم وهو الكثير الماء [6].

---

١ تاج العروس (٨/٧٦)، (قتل).
٢ تاج العروس (٣/٥٥٨)، (نحر).
٣ الكلاعي، الاكتفاء (١/١٥٠).
٤ تاج العروس (٩/٤١)، (كرم).
٥ تاج العروس (٥/٣٢٧)، (دسع).
٦ تاج العروس (٨/٢٨٠ وما بعدها)، (الخضرم) بكسر الخاء.

وقد يعبر عن غاية الجود بقولهم : (هو جبان الكلب) ، اي نهاية في الكرم وكثرته ، لانه لكثرة تردد الضيفان اليه يأنس كلبه فلا ينبح ابداً . قال حسان ابن ثابت :

يُغشون حتى ما تهـــر كلابهم لا يسألون من السواد المقبل [1]

ومن الجود والكرم : الرفادة . والرفد : العطاء واعانة المحتاج . ومن ذلك ما فعلته قريش من (الرفادة) ، حيث اتفقت ان يخرج كل انسان مالاً بقدر طاقته ، يشترون به للحاج الجُزر والطعام والزبيب للنبيذ ، فيجمعون من ذلك مالاً عظيماً ، فلا يزالون يطعمون الناس حتى تنقضي ايام موسم الحج . وذكر ان (هاشم بن عبد مناف) ، كان اول من قام بالرفادة ، وأول من هشم الثريد ، وقد سُمّي هاشماً لهشمه الثريد [2] .

وذكر علماء اللغـــة ان السخاء مراتب ثلاث : سخاء وجود وإيثار . فالسخاء اعطاء الاقل وامساك الاكثر . والجود اعطاء الاكثر وامساك الاقل ، والايثار اعطاء الكل من غير امساك شيء . وهو اشرف درجات الكرم [3] .

ويعبر عن السخاء بـ (الندى) . ويقال (هو ندي الكف) ، اذا كان سخياً [4] . و (طلحة الندى) [5] ، اي السخي الكريم .

من شيم السادة :

ويعد حمل اثقال الديات من شيم السادة ، اذ لم يكن من الممكن للأسر الفقيرة دفع دية القتلى حين توزع في العشيرة او القبيلة ؛ لذلك يحملها السادة عن الضعفاء . وقد مدح « حسان بن ثابت » « حكيم بن حزام بن خويلد » ، فكان مما مدحه به انه (انه حمال اثقال الديات) [6] .

١ تاج العروس (٩/١٥٩) ، (حبن) .
٢ اللسان (٣/١٨١) ، (صادر) (رفد) .
٣ نهاية الأرب (٣/٢٠٤) .
٤ تاج العروس (١٠/٣٦٣) ، (ندا) .
٥ نسب قريش (٢٣٧) .
٦ البرقوقي (ص ٧٠) .

وممن حمل الدماء ودفع أثمان دياتها : (عمرو بن عصم) ، الذي حمل الدماء التي كانت بين (بني سدوس) و (بني عنزة) في الجاهلية [1] ، وهرم بن سنان ، والحارث بن عوف ، اذ تحمّل ديات قتلى الحرب التي وقعت بين عبس وذبيان [2] .

كما يعد حمل ثقل المولودة التي يراد وأدها من الشيم ومن الاعمال الحميدة التي يحمد القائم بها عليها . وقد ذكر اهل الاخبار اسماء جماعة دفعوا مالاً لآباء كانوا قد همّوا بوأد بناتهم لإملاقهم ولضعف حالهم ، فأبقوا بذلك على حياتهن . وهو عمل يقدر حقاً ، لأنه عن حس انساني ودافع خيري نبيل .

فك الأسر :

ومن شيم الرجال المنّ على الاسرى بفكّ رقابهم واعطائهم حريتهم . وقد أبت مروؤة بعض السادات الا ان يقوموا بفك أسر الأسرى واعتاق رقبتهم ، ولو بشراء أسرهم بثمن . وقد ذكر العلماء اسماء رجال منهم عاشوا في الجاهلية عرفوا بعدم رضاهم عن الأسر ، فكانوا يدفعون مالاً في مقابل فكّ رقبتهم . من هؤلاء (سعد بن مُشمت بن المُخَيّل) ، وهو من رجال (بني المخيل) في الجاهلية . وكان آلى ان لا يرى اسيراً الا افتكه [3] .

ومن شيم الرجال العفو عند المقدرة والحلم والصفح عن المسيء ، وكان من عاداتهم في غفران الذنب ، حفر بئر ، ثم ينادي من يريد غفران الذنب والعفو عن المذنب : اشهدوا اني جعلت ذنبه في هذه البئر . ثم يرد فيها ترابها ، وبذلك يغفر الذنب [4] . وقد ضرب العرب المثل بحلم (قيس بن عاصم) ، وبـ (الأحنف ابن قيس) . و (قيس بن عاصم) ، هو من بني منقر من تميم . وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وذكر انه كان اول من وأد ، لأنه خشي ان يخلف على بناته من هو غير كفء لهن . وكان قد وأد ثماني بنات ، ووفد في وفد

---

١ الاشتقاق (١٩٢) .
٢ الشعر والشعراء (٦١) ، (ليدن) .
٣ الاشتقاق (١٩٣) .
٤ شر) ديوان حسان ، للبرقوقي (ص ١٠٧) .

(بني تميم) على الرسول فأسلم . وقد قال له الرسول لما دنا منه : (هذا سيد اهل الوبر) [1] .

وأما (الأحنف بن قيس) ، فهو تميمي كذلك . ادرك النبي ولم يجتمع به . وكان يضرب بحلمه المثل . وله قصص مع الخلفاء . وسكن البصرة ، وبها مات سنة سبع وستين [2] .

وقد رجّح الجـاحظ (الاحنف) على كل من عرف عند العرب واشتهر بينهم بالحلم ، حتى رجحه على لقمان ولقيم وقيس بن عاصم ومعـاوية بن ابـي سفيان . وله قصص مع معاوية [3] . ونسبوا له حكماً وشعرا [4] . وذكر انه هو القائل : (لا تزال العرب بخير ما لبست العمائم ، وتقلدت السيوف ، وركبت الخيل ، ولم تأخذها حميّة الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : ان يروا الحلم ذلاً ، والتواهب ضيماً) [5] . وقيل للأحنف بن قيس : بماذا سدت ؟ فقال : بثلاث ، بذل الندى ، وكفّ الأذى ، ونصر المولى . وقال: انما تعلمت الحلم من قيس بن عاصم : أُتي بقاتل ابنه فقال : رعبّم الفتى . وأقبل عليه فقال : يا بني لقد نقصت عددك ، واوهنت ركنك ، وفتّ في عضدك ، وأشمتّ عدوّك ، وأسأت بقومك ، خلوا سبيله ، وما حل حبوته ، ولا تغير وجهه [6] .

وللعرب كلمة تقولها عند طلب العفو والحلم وفي مواطن الغضب والتشاجر ، هي : (اذا ملكت فاسجح) ، يقصد بها طلب العفو والحلم عند ثوران الغضب . ولهم كلمات اخرى كثيرة في الحث على التحلي بالحلم والصبر [7] .

ومن خصال السادة : النخوة . وقد عرف بها العرب حتى ضرب بها المثل ، فقيل : نخوة العرب ، وورد : (لؤم النبيط ونخوة العرب) . وهم ينتخون لمن

---

١ الاصابة (٣/٢٤٢) ، (رقم ٧١٩٦) ، أمالى المرتضى (١/١١٢) .
٢ الاصابة (١/١١٠) ، (رقم ٤٢٩) ، أمالي المرتضى (١/١١٢) .
٣ الثعالبي ، ثمار (٨٩) ، أمالي المرتضى (١/٢٧٣ ، ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٨) .
٤ كتاب فصل ما بين العداوة والحسد ، من رسائل الجاحظ (١/٣٤٤ ، ٣٦١ ، ٣٨١) ، عيون الأخبار (٤/٩) ، أدب الدنيا والدين (١٣٥) .
٥ كتاب فصل ما بين العداوة (١/٣٦١) .
٦ أمالي المرتضى (١/١١٢ وما بعدها) .
٧ بلوغ الأرب (١/١٠١ وما بعدها) .

لمن ينتخيهم مع ترفع وتعزز [1] . فاذا نحى شخص ، فعلى من انتخى اجابة داعي النخوة والا عدّ جباناً وصار سبة للناس .

ولا يعني ان ما ذكرته كان يجب ان يتوفر حتماً في رجل ليستحق ان يكون سيداً . فقد رمي بعض الرؤساء بالبخل وبشدة الحرص وبامساك يدهم ، ووصف بعض السادات بالظلم وبالقسوة ، ومع ذلك ، فقد حكموا قبيلتهم وساد بعضهم وهم شُبّان ، والعادة عند العرب ان الرئاسة للمسنّ ، وانما الذي ذكرته يمثل رأي دوي الرأي في الرئيس المثـالي الذي يعرف كيف يحكم قومه وكيف يوجه قبيلته . وهي ليست بالضرورة مؤهلات وصفات يجب ان تكون لازمة في الرجل الذي سيسود قومه ، لقد ذكرت ان السيادة بالوراثة ، وأن هذه الخلال اذا تحلى بها انسان آخر من رجال القبيلة عدّ ايضاً سيداً من ساداتها ، بمعنى انه صار شريفاً مقدماً فيها ووجهاً من وجوهها . تماماً كما يكون لمدينة ما رئيس مدينة ، يحكمها بصفة رسمية ، ويكون لها في الوقت نفسه وجهاء وأشراف قد يكون من بينهم من هو اكثر ذكراً وأعلى مكانة وأشرف منزلة من رئيس المدينة ، ولكنه مع ذلك لا يمثل المدينة في الحفلات والمجتمعات ، لأنه ليس برئيسها العامل المعين . وهكذا هو شأن تلك الخصال ، خصال مثالية قد تتوفر في رئيس القبيلة ، وقد لا تتوفر فيه ، بل تتوفر في غيره من ابناء القبيلة ومن رؤساء فروعها ، ليكون لهم السيادة والشرف فيهـا ويشار اليهم على انهم سادة القبيلة ، ولكنهم لا يعنون بذلك رئاسة فعلية ، وانما رئاسة شرف ومكانة وتقدير في مجتمع . ومن هنا نجد اهل الاخبار يذكرون اسماء جملة سادات ، على انهم سادات قبيلة واحدة وفي وقت واحد ، فهم في الواقع سادات مجتمع وفروع قبيلة .

المدح والهجاء :

وللمدح وللهجـاء شأن كبير عند الجاهليين اذ كان الجاهليون يقيمون وزناً كبيراً للقيم المعنوية . فربّ مدح يخلد الممدوح ويبقي ذكره ، ورب هجاء يغض من شأن المهجو ويحط من اسمه . ونحن هذا اليوم نقرأ ما ورد عندهم من المدح ، ونسمع اسماء الممدوحين وما حصلوا عليه من جاه وفخر بين الناس ، ونقرأ ما ورد في ذم أناس وما قيل فيهم من ذمّ وقذع . ولولا الاهمية التي اعطاها الماضون للمدح وللهجاء لما بقي الذم والمديح حتى اليوم .

١ الثعالبي ، ثمار (١٦١) .

ومن أسباب المدح سخاء الممدوح أو شهامته ومجدته وشجاعته وعفته وحلمه وصبره وتضحيته وما الى ذلك من صفات وخلال حميدة . فكان اذا جاءه ضيف يعرفه أو لا يعرفه قدم اليه واجب الضيافة ، وبالغ في اكرامه وان كان فقيراً لا يملك شيئاً . ويقدمه على نفسه وعلى أهله ، لأن الضيافة حق وواجب ، وعلى من يقصد للضيافة أداء هذا الواجب .

وقد كان الملوك يهبون على المدح ويثيبون المادح على قدر ما جاء في مدحهم لهم من تفنن في المدح ومن اطراء زائد ومبالغة في المدح . ولما دخل (النابغة الذبياني) على (النعمان بن المنذر) ، وحيّاه بتحية الملوك ، ثم مضى مسترسلاً في مدحه ، تهلل وجه النعمان سروراً ، وأمر ان يقدم له الدرّ ، و (كسُيَ أثواب الرضى . وكانت جُبّات أطواقها الذهب بقصب الزمرد . ثم قال النعمان : هكذا فليمدح الملوك)[1] . وفي كتب الأدب والأخبار أشعار قيل عن كل شعر منها (انها أمدح بيت قالته العرب)[2] . وفيها مبالغات وغلوّ في المدح ، تجعل الممدوح شمس والملوك كواكب ، اذا طلعت لم يبد منهن كوكب[3] . وأمثال ذلك .

وهذ الشعر وشعر الفخر وأمثالها ، يجب ان يكونا موضوعين لدراسات نفسية ، لأنهما يمثلان أعمق الأحاسيس النفسية للعرب ، ويتحدثان عن المواطن الرقيقة عند العرب ، التي تهتز أوتارها بسرعة عند سماعها هذا النوع من المدح . والنواحي العاطفية التي يمكن منها التأثير في العرب . ونحن لا نستطيع بالطبع ، ان نأخذ هذا الفخر أو ذاك المدح على انهما يمثلان الواقع ويمثلان الممدوح تمام التمثيل . أو انهما تعبير عن نفس صادقة مخلصة في كل ما قالته أو نظمته . فنحن نعلم ان من الشعراء من يمدح للعطاء ويهجو اذا حرم منه . وان الممدوح اذا قطع عطاءه عن الشاعر ، كفّ الشاعر عن مدحه ، وربما انقلب عليه فيغسل كل ما قاله في مدحه له ، بشعر يتسمه فيه بأبشع أنواع الشتم وأمضه . فشعر مثل هذا ، وان كنا نرويه ونتحدث عنه ونحفظه ، ولكنا نرويه ونستلذ بروايته ، لأنه لذيذ من

١ نهاية الأرب (٣/١٧٧) .
٢ نهاية الأرب (٣/١٨٢ وما بعدها) .
٣ نهاية الأرب (٣/١٨٢) .

ناحية الأدب ، ولأنه شعر قديم يمثل ضرباً من ضروب الحياة في ذلك الوقت .

وقد يمدح الشخص بنعته بنعوت مشرفة ، مثل (فلان أبيض) و (قوم بيض) ، و (البيض المناجيد) وهم لا يريدون من اللفظة بياض البشرة ، وانما يريدون المدح بالكرم ونقاء العرض من الدنس والعيوب [1] . وقد ينعت قوم بالخضرة ، ويريدون بذلك ان المنعوتين قوم عرب خلص . والأخضر بمعنى الأسود ، والعرب تسمى الأسود أخضر ، يريدون بذلك سواد الجلد ، والمراد بسواد الجلد انهم عرب خلص [2] .

ويمدح المحافظون على الوفاء بالعهد والمتمسكون بالودّ ، والمحامون على عوراتهم الذابّون عنها . ويعبر عنهم بـ (أهل الحفاظ) [3] .

التفاخـــر :

والتفاخر ، وهو التعاظم ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية [4] . وفي الكتب العربية أمثلة كثيرة من تفاخر الجاهليين بعضهم على بعض ، وتباهيهم بالأشياء الخارجة عن الانسان والتمدح بالخصال . وتكون المفاخر بالآباء والأجداد، وبالسيادة والشرت ، وبالكثرة ، وبالحسب والنسب ، حتى انهم انطلقوا في بعض الأوقات الى القبور فكانوا يشيرون الى القبر بعد القبر ، ويقولون : فيكم مثل فلان ومثل فلان ؟ وفي ذلك نزلت الآية : (ألهاكم التكاثر حتى زُرتم المقابر ، كلاّ سوف تعلمون ، ثم كلاّ سوف تعلمون) [5] . فذكر ان حيين من قريش ، بني عدنان وبني سهم ، تكاثروا بالسيادة والأشراف ، فقال كل حيّ بهم : (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر) . وقيل : ان قبيلتين من قبائل الأنصار ، تفاخروا وتكاثروا ، فقالت احداهما : فيكم مثل فلان وفلان ؟ وقال الآخرون مثل ذلك . تفاخروا بالأحياء ، ثم قالوا : انطلقوا بنا الى القبور ، فجعلت احدى

---

١ البرقوقي (ص ١٣٤) .
٢ البرقوقي (ص ١٣٥) .
٣ اللسان (٤١٢/٧) ، (صادر) ، (حفظ) .
٤ اللسان (ف/خ/ر) ، (٤٨/٥ وما بعدها) .
٥ سورة التكاثر ١٠٢ ، الآية ١ فما بعدها ، بلوغ الأرب (٢٧٩/١) .

الطائفتين تقول : فيكم مثل فلان يشيرون الى القبر ، وقال الآخرون مثل ذلك . فأنزلت : (ألهاكم التكاثر)[1] .

وتقع المفاخرات بحضور محكمين في الغالب ، أو طرف ثالث محترم ، وعلى الطرفين قبول الحكم واطاعته ، وسماع رأي الطرف الثالث في حجج وأقوال المتخاصمين المتفاخرين . وتكون المفاخرة بإظهار كل طرف ما عنده من خصال يفاخر بها ، ومن مناقب يستأثر بها ، ومن مجدٍ يرى انه انفرد به دون خصمه ، ثم يذكر ما امتاز به على خصمه ، بكلام منثور ومنظوم ، منسق منمق ، وما قام به من أعمال فريدة ، وما حصل عليه في حروبه مع الناس . وبعد ان يفرغ المتفاخرون من إلقاء ما عندهم من حجج وبيان ، ينظر المحكمون في الحجج التي استمعوا اليها ، ليبدوا حكمهم بموجبها ويكون حكمهم أصعب شيء يواجهونه ، لما يتركه من أثر في نفوس المتخاصمين ، ولما سيكون له من تأثير في مكانة من سيخسر المفاخرة .

ويقال للمفاخرة (المنافرة) . و (المنافرة) المحاكمة في الحسب ، وان يفتخر الرجلان كل واحد منهما على صاحبه ، ثم يحكّما بينهما رجلاً ، كفعل (علقمة بن علاثة) مع (عامر بن طفيل) حين تنافرا الى (هرم بن قطبة الفزاري) ، وفيهما يقول الأعشى يمدح (عامر بن الطفيل) ويحمل على (علقمة ابن علاثة) :

قد قلت شعري فمضى فيكما واعترف المنفور للنافر

وقد نافر (أنيس) أخو (أبي ذرّ الغفاري) شاعراً على شعره ، إذْ كان يرى انه أجود منه شعراً[2] . وتكون المنافرة في كل شيء ، يرى انسان انه يفوق به غيره ، كالمنعة والعزّ والجاه والكرم وما شاكل ذلك من خصال . قال (ابن سيده) : (وكأنما جاءت المنافرة في أول ما استعملت انهم كانوا يسألون الحاكم : أينا أعز نفراً ؟)[3] .

و (النفار) ان يتنافروا الى حاكم يحكم بينهم . و (النفورة) الحكومة .

١ بلوغ الأرب (١/٢٧٩) .
٢ اللسان (٥/٢٢٦) .
٣ اللسان (٥/٢٢٦) ، القاموس (٢/١٤٦) .

وورد (يوم نفورة) : أي يوم حكومة ، حكم فيه بالنفار [1] .

ومن المفاخرات ، مفاخرةُ وفود ربيعة ومضر ابني نزار عند النعمان بن المنذر . فكان فيمن قدم عليه من وفود ربيعة (بسطام بن قيس) و (الحوفزان بن شريك) . وفيمن قدم عليه من وفد مضر من قيس بن عيلان (عامر بن مالك) وعامر بن الطفيل . ومن تميم قيس بن عاصم ، والأقرع بن حابس [2] . ومفاخرة (آل حذيفة بن بدر) و (آل الأشعث بن قيس الكندي) عند كسرى . وهم من أعرق الأسر في أيامهم ، وأشرفها . وقد عَجِب (كسرى) بذكائهم وبحدة أذهانهم [3] . ومفاخرات أخرى مدوّنة في الكتب .

ومن مفاخرات أهل الجاهلية ، منافرة (عامر بن الطفيل) مع (علقمة بن علاثة) [4] المذكورة ، ومنافرة (بني فَزَارة) و (بني هلال) [5] ، ومنافرة (الفقعسي) و (ضمرة) [6] ، ومنافرة (جرير البجليّ) و (خالد بن أرطاة الكلبيّ) [7] ، ومنافرة (القعقاع بن زُرارة بن عدس) و (خالد بن مالك ابن رُبعي بن سلم بن جندل بن نهشل) [8] ومنافرة (هاشم بن عبد مناف) و (أمية بن عبد شمس) [9] .

ومن المنافرات ، منافرة (عامر بن أحيمر) عند (المنذر بن امرىء القيس ابن ماء السماء) . فقد ذكر ان (المنذر) أخرج بُردَين يوماً يبلو الوفود ، وقال : ليقم أعز العرب قبيلة ، فليأخذهما . فقام (عامر بن أحيمر) فأخذهما وائتزر باحدهما وارتدى بالآخر ، فقال له المنذر : أأنت أعز العرب قبيلة ؟ فقال : العز والعدد في معدّ ، ثم في نزار ، ثم في مضر ، ثم في خِنْدف ،

١ البيان والتبيين (١/ ٢٤٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥١) .
٢ بلوغ الأرب (١/ ٢٨٠ وما بعدها) .
٣ بلوغ الأرب (١/ ٢٨١ وما بعدها) .
٤ بلوغ الأرب (١/ ٢٨٨) .
٥ بلوغ الأرب (١/ ٢٩٧) .
٦ بلوغ الأرب (١/ ٢٩٨ وما بعدها) .
٧ بلوغ الأرب (١/ ٣٠١) .
٨ بلوغ الأرب (١/ ٣٠٦) .
٩ بلوغ الأرب (١/ ٣٠٧ وما بعدها) .

ثم في تميم ؛ ثم في سعد ، ثم في كعب ، ثم في عَوف ، ثم في بهدلة ، فمن أنكر هذا فلينافرني ، فسكت الناس ، فقال المنذر : هذه عشيرتك كما تزعم ، فكيف أنت في أهل بيتك وفي نفسك ؟ فقال : أنا أبو عشرة ، وأخو عشرة ، وخال عشرة ، وعم عشرة ، وأما أنا في نفسي ، فشاهد العز شاهدي ، ثم وضع قدمه على الأرض ، فقال : من أزالها عن مكانها ، فله مئة من الإبل . فلم يقم اليه أحد من الحاضرين ، ففاز بالبردين ، وعرف بـ (ذي البُردَين) [1] .

وطالما كانت تؤدي هذه المفاخرات الى وقوع حروب وسفك دماء ، ولذلك أبطلها الاسلام ، ونهى عنها ؟ وعدّها من شعار الجاهلية [2] .

والمساجلة في معنى المفاخرة ، بأن يصنع مثل صنيعه في جري أو سقي . وتساجلوا بمعنى تفاخروا . ذكروا ان أصل المساجلة : ان يستقي ساقيان ، فيخرج كل منهما في سَجلّه مثل ما يخرج الآخر ؛ فأيهما نكل فقد غلب ، فضربته العرب مثلاً للمفاخرة ، فإذا قيل فلان يساجل فلاناً فمعناه انه يخرج من الشرف مثل ما يخرجه الآخر ، فأيهما نكل فقد غلب [3] .

وتعرف (المفاخرة) بـ (المُباهاة) أيضاً . فيقال : تباهوا اذا تفاخروا . وأما اذا صايحه ، فيقال هابـاه [4] . وذلك بأن يذكر كل متباه مناقبه ومناقب قومه ، يتفاخر بها على خصمه . وطالما أدت المباهاة الى وقوع خصومات ومعارك .

ومن مفاخر العرب التفاخر بمن برز عندهم في عمل فذّ وفي عمل خصال كريمة ، أو قام بفعل استحق الإعجاب . فكانت القبائل تتفاخر بذكر أسماء هؤلاء ، وتحفظ أسماءهم للتباهي بهم ، كما تفعل الدول في التباهي برجالها . ومن مفاخرهم : الفروسية ، فعدّ (الحوفزان) مثلاً وهو (الحوفزان بن شريك) فارس بكر بن وائل .

١ بلوغ الأرب (١/٧٦) .
٢ سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ١٨ ، سورة الحديد ، ٥٧ ، الآية ٢٣ ، سورة النساء ٤ ، الآية ٣٦ ، العقد الفريد (٦/١٠١) ، (طبعة العربان) ، بلوغ الأرب (١/٢٧٨) .
٣ قال الفضل بن عباس بن عتبة بن أبي لهب :
من يساجلني يساجل ماجدا يملأ الدلو الى عقد الكرب
اللسان (١١/٣٢٦) ، (صادر) ، (سجل) .
٤ اللسان (١٤/٩٩) ، (بها) .

وافتخروا بـ (الأصم عمرو بن قيس) ، ولقب عنـد المتفاخرين بـه بـ (صاحب رؤوس بني تميم) ، وافتخروا بـ (مفروق بن عمرو) (حاضن الأيتام) والظاهر انه كان يحن على الأيتام ويعطف عليهم ، لذلك لقب بهـذا اللقب ، وافتخر بـ (سنان بن مفروق) ، الذي عرف بـ (ضامن الدمن) . كما افتخر بـ (عمران بن مرة) لأنه أسر (يزيد بن الصعق) مرتين[1] .

الخيـلاء :

وقد عرف بعض الجاهليين بالخيلاء والزهو والتغطرس . وقد اعتبرها الاسلام من سمات أهل الجاهلية . وقـد اشتهر (سماك بن خرشة الأنصاري) بمشية خاصة به ، فيها تبختر وخيلاء ؛ حتى عرفت بـ (مشية أبي دجانة)[2] . والتبختر هي مشية العجب والخيلاء . وكانت من مشية بعض المغرورين المترفين من أصحاب الجاه والمال .

الهجـاء :

والهجاء عكس المدح ، وهو ذم الشخص والانتقاص منه وشتمه . وقـد نبغ فيه بعض الشعراء ، وتخصص به ، ويجب ان نقف منه موقف الحذر الشديد ، لما للعواطف والهوى من أثر فيه . وقد يهجو شخص شخصاً أو قوماً لسبب تافه ، أو بسبب حادث وقع له لا يستوجب صدور ذلك الهجاء منه . وهناك أشخاص جبلوا على ازدراء الناس وشتمهم والانتقاص منهم ، فهجوا أكثرهم ، بل بلغ بهم الهجاء حداً حملهم على هجو أقاربهم وأهلهم ، بل أنفسهم في بعض الأحيان .

ويستحق الهجـاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخـلاق الأرذال ، والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره . وقـد حفظ الرواة بعض الأشعار التي قيل انهـا كانت من أهجى أشعار العرب في الجاهلية

---

١ العمدة (٢/٢٢١) .

٢ الثعالبي ، ثمار (٨٧ وما بعدها) ، تاج العروس (٩/١٩٦) ، (دجن) .

وفي الاسلام . وذكر ان من شعر الهجاء المرّ القاسي قول الأعشى :

تبيتون في المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى يبتن خمائصا [1]

وقوله في الزبرقان بن بدر :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي [2]

وقول الطرمّاح :

تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلّت [3]

الى غير ذلك من شعر ، يجب ان نأخذه بحذر . وان نعالجه دائماً على انه يمثل العواطف الشخصية والانفعالات النفسية ، والتهيـــج الآني . وان شعراً من هذا القبيل لا يمكن ان يحمل محمل الصدق ، وان نقول عنه انه يعبر عن الواقع . بل نأخذه كما سبق ان ذكرت عن شعر المديح على انه تعبير عن نوع من أنواع الأدب في ذلك الوقت . وعلى انه باب يجب ان يدرس من الوجهة النفسية ، لأنه يفيد في الوقوف على النفسية العربية والعقلية الجاهلية في ذلك الوقت .

ولم يكن الهجاؤون يراعون الصدق في كلامهم ، وكيف يراعونه وهم يريدون هجو خصومهم والإساءة اليهم والى سمعتهم بأيـــة طريقة ووسيلة كانت ، حتى وان علموا ان سامعي الهجاء لا يصدقونه . ومن هذا القبيل رمي بعض القبائـل أو الأُسر بأنها من أصل أعجمي ، وفي كتب الأخبار أمثلة عديدة على ذلك ، وقد يكون ذلك بسبب وجود دم أعجمي من أم أو من أب بعيد أو قريب ، وقد لا يكون أي أثر من ذلك . شتم (عمرو بن الأهتم) (قيس بن عاصم) ، فقال له ولقومه :

إن تبغضونا ، فإن الروم أصلكم والروم لا تملك البغضاء للعرب [4]

وقد عير (حسان بن ثابت) (بني المغيرة) وسبهم بأنهم عبيد قيون ، أبوهم

١ نهاية الأرب (٣/٢٧٢) .
٢ نهاية الأرب (٣/٢٧٥) .
٣ نهاية الأرب (٣/٢٧٦) .
٤ ديوان حسان (ص ٤٤) (هرشفلد) .

قين لدى (كيره) جاثم . يأخذون (الاهالة) ، وهو الدهن الذي يستخرج من اللحم ، ويبيعونه من الدبّاغين [1] . فما ذكره فيهم هو من اعمال العجم والصعاليك ، لا العرب الأصلاء والأقحاح .

وذكر ان (الوليد) المعروف بـ (الوليد بن المغيرة) لم يكن عربياً ، وانما كان عبداً رومياً ، وكان اسمه (ديم) ، واسم ابيه (صقعب) ، فرغب فيه (المغيرة) ، فادّعاه ، والحق صقعباً بالشام ، فاشتاق اليه ، فصوره في الحائط . وقد هجاه (حسان بن ثابت) ، فقال له ان والدك (صقعباً) كان قيناً ، وأما امك فهي (حباشة) ، وهي عبدة سوداء . وقد تباهيتَ اذ صرت غنياً ، وانما صرت ثرياً بكليتك هذه ، وهي آلة من آلات الحدادين ، يشير بذلك الى انه كان حداداً ، يعرف ضرب النصال ، وحسن الرقع للبرم ، وهي القدور [2] . ويظهر من شعر حسان ومن شرح الشرّاح ان (الوليـــد) كان مصوّراً ماهراً متمكناً من فنه ، حتى صور اباه ، ان صح هذا الادعاء من (حسان) .

ولحسان بن ثابت هجاء شديد لثقيف ، قال في بعضه خلّوا (معداً) ولا تنسبوا إليها ، واتركوا (خِنْدفاً) ، فما لكم من ولادة فيها ، وذلك على عاداته وعادة الشعراء والناس عند هجاء قوم ، حيث يرمونهم بكل قبيح ، ويجردونهم من كل مكرمة ، الا انه لم يصرح في شعره بأنهم من ثمود ، اذ كانوا وقت هجاء (حسان) إياهم من (قيس) . وقد نسبهم بعضهم الى (الفهود بن بني جاثر بن إرم ، اخوة ثمود) ، ونسبهم آخرون الى (وحاظة) بن حمير ؛ وقال آخرون ان (ثقيفاً) ، هو عبد [3] . كل ذلك نكاية بثقيف .

وذكر اهل الاخبار ان (الازرق) ، وهو غلام رومي في الأصل كان للحارث ابن كلدة الثّقفي . وقد ادعى نسله ان (الازرق) هو ابن (عمرو بن الحارث ابن ابي شمر الغساني) ، فهم من غسان . وذكر انهم ادعوا في اول امرهم انهم من تغلب ، ثم من بني عكب ؛ ثم افسدتهم خزاعة ، ودعوهم الى اليمن ، وزينوا لهم ذلك ، وقالوا : انتم لا يغسل عنكم ذكر الروم الا ان تدعوا انكم

---

١ البرقوقي (ص ٤٠٣) .
٢ البرقوقي (ص ٤٠٠ وما بعدها) .
٣ البرقوقي (ص ٣٤٦) .

من غسان . فانتموا الى غسان بعد [1] .

وقد عَيَّرت العرب وسبَّت من كان ذا أصل خامل ، كأن يكون قينا ، والقين العبد والحداد . ولعلها جمعت هذا المعنى من الترابط بين الحرفة والمنزلة ، فقد كان القيون من العبيد . وقد عَيّر (حسان بن ثابت) (بني عوف بن عوف) بأنهم منتسبون الى قريش ، ولكن نسبهم ليس منهم ، بل من جذع قين لئيم العروق عرقوب والده اصهب [2] . فرماهم بأنهم ليسوا من قريش ، ولا من العرب ، بل من الروم ، ووالدهم اصهب به حمرة ، وليست الصهبة من لون العرب . وقال لهم : واذا اردتم الانتساب الى العرب ، فانتسبوا الى (تغلب) ، انهم شرّ جيل ، وليس لكم غيرهم مذهب [3] . ويبعث قول « حسان » هذا في « تغلب » على الظن بأن أقواماً من الغرباء دخلوا في تغلب ، وصاروا منهم . ولعله قصد ان من تنصر ، دخل في تغلب ، حتى دخل فيهم من ليس من العرب بسبب نصرانيته ، حتى دخل فيهم قوم اصلهم من الروم .

وعُيّر بـ (اولاد درزة) ، ويراد بهم الغوغاء . وبنو درز : الخياطون والحاكة ، والعرب تقول للدعيّ : هو ابن درزة وابن ترني . وذلك اذا كان ابن أمة تُساعي ، فجاءت به من المساعاة ، ولا يعرف له أب ، . وقال : هؤلاء أولاد درزة وأولاد فرتني للسفلة والسقاط [4] .

والسب : الشتم ، والسباب : الشتائم والمشاتمة . وأما (السبّة) فالعار [5] . وكانوا يتشاتمون جماعات وفُرادى ، ويعير بعضهم بعضاً وقد يقذعون في السب ، ولا سيما في الامور التي تتغلب فيها العواطف على العقل .

ومن شتائم الجاهليين وسبابهم (عضضت بأير أبيك) [6] ، ويا ابن الزانية ،

١ طبقات ابن سعد (٣/٢٤٧) (دار صادر) .

٢ الى جذم فبن لئم العرو ق عرقوب والده أصهب
البرقوقي (ص ٦٣) .

٣ الى تغلب انهم شر حيل فليس لكم غيرهم مذهب
البرقوقي (ص ٦٣) .

٤ اللسان (٥/٣٤٨) ، (صادر) ، (درز) .

٥ تاج العروس (٣/٣٤ وما بعدها) .

٦ البرقوقي (١٢١ وما بعدها) .

ويا ابن الفاعلة ، و (يا عاض اير ابيه) ، و (يا مصفر أُسته) [1] ، و (يا ابن ملقى ارحل الركبان) [2] .

وعيرت العرب بالبخـــل . والبخل هو على نقيض الكرم . وقد ذُمّ بعض الجاهليين لبخلهم ولحرصهم الشديد على مالهم وعدم مساعدتهم الفقراء والمحتاجين . وقد انتخبوا من بينهم رجلاً زُعم انه ابخل الناس في الجاهلية اسمه (مادر) ، (بخل مادر) و (ابخل من مادر) . وهو رجل من (بني هلال بن عامر) . ذكر انه كان اذا اتى ماءً روي وأروى بملأه مدراً ضنا على غيره بوروده . وانه بلغ من بخله انه سقى ابله ، فبقي في الحوض ماء قليل ، فسلح فيه ومدر الحوض بالسلح ، اي لطخه [3] . وورد في الامثال : (ألأم من مادر) [4] .

وعيّرت بالغدر . قال بشر :

رَضيعَةُ صَفْحٍ بالجباه ملمةُ لها بَلَقٌ فوقَ الرؤوس مشهَّرُ

وصفح رجل من (بني كلب بن وبرة) ، جاور قوماً من (بني عامر) ، فقتلوه غدراً . يقـــول غدرتكم بـ (زيد بن ضباء الاسدي) ، اخت غدرتكم بصفح الكابي [5] .

وعيرت من ينكر الصنيع الجميل والفعل الحميد ، فينسى احسان من احسن له . وعيرت من لا يفي ، ولا سيما من أكل الخبز والملح ، وهما من موجبات الوفاء ، فقالوا : (ملحه على ركبته) ، في عدم الوفاء [6] .

واذا سبت العرب احد الموالي ، قالت : يا ابن حمراء العجان ، اي يا ابن الأَمة . كلمة تقولها في السبّ والذمّ . والعرب تسمّي الموالي : الحمراء [7] . وكانوا يعيرون (الأتاوي) ، وهو الغريب في غـــير موطنه ، ولا يعدلون احداً من

---

١ الثعالبي ، ثمار (٢١) .
٢ تاج العروس (٧/٣٤٢) ، (رحل) .
٣ الثعالبي ، ثمار (١٢٧) .
٤ تاج العروس (٣/٥٣٦) ، (مدر) .
٥ تاج العروس (٢/١٨٠) ، (صفح) ، اللسان (٢/٥١٦) ، (صفح) .
٦ تاج العروس (٢/٢٣٠) ، (ملح) .
٧ تاج العروس (٣/١٥٨) ، (حمر) .

الأتاويين بأصحاب المحلات . قال الشاعر :

لا تعدلن اتاويـــين قد نزلوا وسط الفلاة بأصحاب المحلات

وقالت امرأة من الكفّار ، وهي تحرض الأوس والخزرج ، حين نزل فيهم النبي :

أطعتم أتاويّ من غـــيركم فلا من مُراد ولا مذحـــج

ارادت ان تؤلب وتذكي العصبية [1] .

وكانوا اذا ارادوا الاستهزاء برجل جاهل سفيه ، قالوا له : هذا من اشد سباب العرب ، أي ان يقول الرجل لصاحبه اذا استجهله يا حليم ! اي انت عند نفسك حليم وعند الناس سفيه [2] .

ويعيّر الانسان بأبويه ، او بأحدهما ، اذا كان بهما او بأحدهما مثلبة ومنقصة يؤاخذ عليها ، كأن يكون ابن أمة او ابن سبي بيع في السوق . وقد رأينا انهم كانوا يزدرون الهجين ، ولا ينظرون اليه نظرتهم الى انسان صريح ، كما كانوا يزدرون مَنَ أُمه او ابوه من اصحاب الحرف . وقد عُيِّر (النعمان بن المنذر) لأن امه (سلمى) كانت ابنة قَيْن ، على زعم بعض الرواه . وكانوا اذا شتموا ابن امة ، قالوا له : يا ابن استها [3] .

وقد كان للجاهليين اعراف في اهانات الناس ، من مثل سب الشخص على ما ذكرت ، وتحريض الاطفال على العبث بمن يريدون اهانه ، ورميه بالحجارة والركض خلفه ، وبأمثال ذلك ، او بتحريض السفهاء على التحرش بالشخص ، او تحريض النسوة بسبّه ،وبالاقذاع في كلامهم معه ، وبما شاكل ذلك من وسائل دنيئة لا تنم على قدرة المحرض ولا على جرأة عنده ، فيعمد الى امثال هذه الامور .

وأما المقتدرون المتمكنون ، فكانوا اذا ارادوا اهانة انسان اهانوه بأسلوب يدلّ على قدرة المهين وتمكنه من مُهانه وازدرائه ، فكان احدهم اذا تمكن من عدوّه ،

---

١ الحيوان (٥/٩٧) ، (هارون) .

٢ اللسان (١٢/١٤٦) ، (صادر) ، (حلم) .

٣ قال الأعشى :

أسفهـــا أوعدت يا ابن استهـــا لسب علـــى الأعـــداء بالقـــادر

وقال حسان بن ثابت :

فما منـك أعجب يا ابن اســتها ولكنـني من أولـــى أعجـــب

الرفوني (ص ٦١) .

عمد الى اهانته بنتف لحيته . ونتف اللحية من الاهانات الشديدة عند العرب ، لأن اللحية من سماء الرجولة ، فاذا نتفت عدّ نتفها انتقاصاً من شأن ذلك الرجل وازدراءً شديداً به .

وما يقال عن الاهانة التي توجه الى الرجل بنتف لحيته ، ينطبق كذلك على (جز الناصية) . فجزّ الناصية من وسائل التحقير والازدراء ، وفيه دلالة على ازدراء مَنْ جزّ الناصية بمن جُزّت ناصيته ، بعد ان تمكن منه . وقد كان في امكانه استرقاقه ، او المنّ عليه بفك أسره ، او بفك رقبته بفدية ، ولكنه لم يفعل كل ذلك ، ولم يطمح في الفدية امعاناً في ازدراء خصمه بافهام الناس ان ذلك الشخص لا يساوي شيئاً ، وان المتمكن ارفع من ان يقبل فدية عن رجل وضيع خامل .

وكانوا اذا ذكروا خصومهم ، تمنوا لهم الشرّ والأذى ، واستعملوا جملاً فيها هذه المعاني . مثل : أخس الله حظه [1] ، وأبعده الله وقبحه ، او رضيع اللؤم ، او ابعد الله دار فلان ، وأوقد ناراً في أثره [2] ، وقد يذكرونهم بهزء وسخرية . ويكثر ذلك عند اهل الفرار .

ومن معـــاني الشتم لفظة (لحى) ، التي تعني (شتم) . يقال (لحى الله فلانا) ، اي قبحه ولعنه . و (الملاحاة) المنازعة . وفي المثل من لاحاك ، فقد عاداك [3] .

وكان من دعاء بعضهم على بعض قولهم : (حبناً وقداداً) . والحبن الاستسقاء ، والقداد ، وجع في البطن [4] .

وكان اذا دعا الرجل على صاحبه ، يقول : قطع الله مطاك . فيقول الآخر : بسلا بسلاً ، اي آمين آمين . وكان يحلف الرجل ثم يقول بسل ، أي : آمين . وكان (عمر) يقول في دعائه : آمين وبسلاً ، اي ايجاباً وتحقيقاً . وهي في معنى الويل ، يقال : بسلاً له اي ويلاً له [5] .

---

١ تاج العروس (١٣٨/٤) ، (خسس) .
٢ اللسان (٤٦٦/٣) ، (وقد) .
٣ تاج العروس (٣٢٣/١٠ وما بعدها) ، (لحا) .
٤ تاج العروس (٤٦١/٢) ، (فد) .
٥ تاج العروس (٢٢٧/٧) ، (بسل) .

وكانوا اذا ما أرادوا التكنية عن الكذاب ، قالوا : (أبو بنات عبر) . و (بنات عبر) الكذب والباطل [1] .

الخسة والدناءة :

والخسة والدناءة ، والخسيس الدنيء والحقير [2] . والدنيئة القيصة [3] . والدنيّة الخصلة المذمومة [4] . وهي من المثالب التي تكون في الانسان . فيزدرى من شأنه ويحتقر بين قومه . ومنها الحسد واللؤم وعدم احترام العرض . والعرب تتنحى من الدنايا وتستنكف منها [5] .

والحسد من الصفات السيئة التي كرهها العرب . وقد كان الحسد إذ ذاك كثيراً ، بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية وانتشار الفقر . فكان الفقير يحسد غيره على ما عنده ، مهما كان ما عنده قليلاً ، لأنه لا يملك حتى هذا القليل . وقد بحث (الجاحظ) في الحسد ، ووضع رسالة فيه دعاها : كتاب فصل ما بين العداوة والحسد . والحسد عنده شيء مألوف يقع لكل طبقة ولكل إنسان . ومن أسبابه · حبّ الرياسة ، ووجود النعمة ، وأمور أخرى ذكرها وتحدث عنها . كما تكلم عن مظاهر الحسد وأشكاله عند الجاهليين والاسلاميين ، وقد جعله فوق العداوة ، لأن العداوة تزول بزوال أسبابها ، أما الحسد ، فإنه دائم باق [6] .

و (الجبن) ، من الصفات التي يعير (الجبان) بها . وهو الذي لا يحب القتال ولا يستعمل سيفه . ولما كانت الحياة عند العرب حياة قتال صارت الشجاعة في الانسان صفة من صفات التكريم والتعظيم والتقدير ، عكس (الجبن) ،

١ اذا ما جئت جاء بنات عبر وان وليت أسرعن الذهابا
تاج العروس (٣/٣٧٧) ·
٢ تاج العروس (٤/١٣٧) ، (خس) ·
٣ تاج العروس (١/٦٦) ، (دنأ) ·
٤ تاج العروس (١٠/١٣٢) ، (دنو) ·
٥ تاج العروس (١٠/٣٦٢) ، (بخا) ·
٦ راجع رسالته في رسائل الجاحظ (١/٣٢٥ وما بعدها) ، تحقيق (عبدالسلام محمد هارون) ·

وينظر الناس الى (الجبان) نظرتهم الى النساء ، بل هو عندهم دونهن شأناً . لأن المرأة ولدت وفي طبعهـا اللين والاستسلام ، أمـا الرجل فقد خلق للعراك والقتال ، وقد حفظ أهل الأخبار قصصاً عن الجبناء وعن تحايلهم في سبيل تخليص أنفسهم من القتال ومن استعمال السيف . وقد اتهموا بتهم . منها : انهم كانوا ينتابهم (الضراط) عند شعورهم بخوف وبأصوات السيوف . حتى استخفّت النساء بهم من أجل ذلك . قيل في المثل : أجبن من المنزوف ضرطاً . ومن ذلك ان نسوة من العرب لم يكن لهن رجل ، فتزوجت احداهن رجلاً كان ينام الصبحة ، فاذا أتينه بصبوح ، قلن قـم فاصطبح ، فيقول : لو نهتُنّني لعاديـة ، فلما رأين ذلك . قال بعضهن لبعض : إنّ صاحبنا لشجاع ، فتعالين حتى نجربه ، فأتينه كما يأتينه ، فأيقظنه . فقال : لو لعادية نبهتني . فقلن هذه تواصي الخيل . فجعل يقول : الخيل الخيـل ويضرط ، حتى مات . الى غير ذلك من قصص يرويه الأخباريون [1] .

الشرف والخمول في قبائل العرب :

والقبائل كالأفراد والأُسر ، فيها النابه المذكور المهاب ، وفيها الخامل الهزيل الضعيف الذي لا ينظر اليه نظرة تقدير وتبجيل . والقبيل الكثير الذَّرء والفرسان والحكماء والأجواد والشعراء ، وكثير السادات في العشائر ، وكثـير الرؤساء في الأرحاء ، هو القبيل المقدر المعظم ، ذو الشأن بين القبائل [2] . وقد تقع أحداث وعوامل ، تؤدي الى خمول القبيل والى انفصام وحدته ، والى طمع غيره فيه ، فيهزل عندئذ ويخمل ، ويأخذ مكانه من هو أقوى منه . وقد ذكر (الجاحظ) ، ان القبيل الذرء والعدد ، والذي لا يكون فيه خير كثير ولا شرّ كثير ، يخمل ويدخل في غمار العرب ، ويغرق في معظـم الناس ، وصار من المغمورين ومن المنسيين ، وسلم من ضروب الهجاء ومن أكثر ذلك ؛ وسلم من ان يُضرب بـه

---

١ تاج العروس (٥/١٧٦) ، (ضرط) .

٢ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) ، (هارون) .

المثل في قلة ونذالة اذا لم يكن شرّ ، وكان محلّهم من القلوب محلّ من لا يغيظ الشعراء ، ولا يحسدهم الأكفاء ... واذا تقادم الميلاد ولم يكن الذرء وكان فيهم خير كثير وشرّ كثير ، ومثالب ومناقب ، لم يسلموا من ان يُهجوا ويضرب بهم المثل ... وقد يكون القوم حلولاً مع بني أعمامهم ، فإذا رأوا فضلهم عليهم حسدوهم ، وان تركوا شيئاً من انصافهم اشتدّ ذلك عليهم ، وتعاظموا بأكثر من قدره ، فدعاهم ذلك الى الخروج منهم الى أعدائهم . فإذا صاروا الى آخرين نهكوهم وحملوا عليهم ، فوق الذي كانوا فيه من بني أعمامهم ، حتى يدعوهم ذلك الى النّدم على مفارقتهم ، فلا يستطيعون الرجوع ، حميّة واتقاء ، ومخافة ان يعودوا لهم الى شيء مما كانوا عليه ، والى المقام في حلفائهم الذين يرون من احتقارهم ، ومن شدة الصولة عليهم)[1] .

وقد ذكر (الجاحظ) ، ان مما تبتلى به القبائل فيصيبها الخمول : الشعر ونبوغ الأقارب أو المنافسين . فالشعر عند العرب يرفع من قدر الناس ويحطّ من درجاتهم . فقد يقال بيت واحد يربطه الشاعر في قوم ليس لهم جاه ، فيرفع من شأنهم ، وقد يقال بيت واحد في قوم لهم النباهة والعدد والفعال ، فيغض من مكانتهم ، ويكون سبّة لهم . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار من وقْع الهجاء ، كما بكى مخارق بن شهاب ، وكما بكى علقمة بن عُلاثة ، وكما بكى عبد الله بن جُدعان . والبلية الأخرى : ان يكون القبيل متقادم الميلاد ، قليل الذرء قليل السيادة ، وتهيّأ ان يصير في ولد إخوتهم الشرف الكامل والعدد التامّ ، فيستبين لمكانهم منهم من قلتهم وضعفهم لكلّ من رآهم أو سمع بهم ، أضعاف الذي هم عليه لو لم يكونوا ابتلوا بشرف إخوتهم .

ومن شؤم الإخوة ان شرفهم ضعة إخوتهم ، ومن يمن الأولاد ان شرفهم شرف من قبلهم من آبائهم ومن بعدهم من أولادهم[2] . ولذلك كانت القبائل تفخر بنبوغ الشعراء بها ، لانهم لسانها الذابّ عنها ، وسيفها المصلت على رقاب

---

١ الحيوان (١/٣٥٧ وما بعدها) ، (هارون) .

٢ الحيوان (١/٣٦٥) .

الأعداء . وتتباهي بما يقوم به ساداتها من فعال حميدة وأعمال مجيدة ترفع رأس أبناء القبيلة بين الناس .

ولأهمية الشعراء عند الجاهليين ، قال بعض العلماء : كلاب الحيّ شعراؤهم ، وهم الذين ينبحون دونهم ، ويحمون أعراضهم . وفي هذا المعنى جاء قول عمرو بن كلثوم :

وقد هرّت كلابُ الحيّ منّا وشذّبنا قتادة من يلينا [1]

الاسلام والجاهلية :

وقد أبطل الاسلام كل سمة من سمات الجاهلية وعلامة من العلامات التي كانت تعدّ من صميم حياة الجاهليين . وفي جملتها المثل الأعرابية والحياة البدوية ، فاعتبر الأعرابية بعد الاسلام ردة . ونهى عن الهجرة من المدن الى البوادي ، فكان الأعرابي اذا دخل في الاسلام ، لزم الحضارة ، وكلّف بواجب الجهاد في سبيل نشر الاسلام ، لما في التبدي والأعرابية من ابتعاد عن الجماعة وترك للواجب الملقى على المواطن في الدفاع عن الاسلام وفي العمل على انهاض المجتمع والانتاج في سبيل الخير العام . لذلك لام الناس (أبا ذر الغفاري) ، حين لجأ الى (الربذة) فأقام بها وتعزب بذلك عن الجماعة [2] .

وفي جملة ما حاربه الاسلام من أمور الجاهلية الأصنام والأوثان ، فطُمست وأزيلت معالمها ، بل غير أموراً أقلّ منها شأناً وخطراً ، مثل : خضرمة النوق . وكان أهل الجاهلية يخضرمون نعمهم ، فلما جاء الاسلام أمروا ان يخضرموا من غير الموضع الذي يخضرم منه أهل الجاهلية [3] . وذلك منعاً من التشبه بالجاهليين ، وابعاداً للمسلمين عن تذكر أيام ما قبل الاسلام . ونهى عن تسنيم القبور وعن لبس بعض الملابس ، وعن أمور أخرى ، لأنها كانت من صميم أعمال الجاهليين .

---

١ الحيوان (١/٣٥١) ، (هارون) ، (كلاب الجن) ، الثعالبي ، ثمار (٦٩) .
٢ تاج العروس (١/٣٨٠) ، (عزب) .
٣ تاج العروس (٨/٢٨١) ، (الخضرم) .

وحارب الاسلام العصبية التي كانت من أهم سمات الجاهلية ، والتي بقيت مع ذلك كامنة في نفوس الناس . عصبية القبائل وعصبية القرى والمواضع . من ذلك ما كان بين يمن وأهل مكة من نزاع ، تحول الى نزاع قحطان وعدنان . فعير أهل مكة اليمن بأنهم قيون ، وأجابهم أهل اليمن بكلام غليظ شديد . هـذا (أمية بن خلف) يهجو حسان بن ثابت بقوله :

أليس أبوك فينـا كان قيناً لدى القينات ، فسلاً في الحفاظ ؟
يمانياً يظلّ يشدّ كيراً وينفـخ دائبـاً لهب الشواظ [1]

وهذا (حسان) يجيبه ويرد عليه في شعر مطلعه :

أتاني عن أميّـة زُورُ قولٍ وما هو في المغيب بذي حفاظ [2]

وطالمـا ظهرت هـذه العصبية في أيام الرسول ، بتنازع الأنصار وقريش وتفاخرهـم بعضهم على بعض . وذكر ان في جملة أسباب تحريم الخمر ، ان رجلاً من الأنصار صنع طعامـاً ، فدعا جمعاً من الأنصار وقريش ، وشربوا الخمر حتى انتشوا ، فتفاخرت الأنصار وقريش ، فقالت الأنصار : نحن أفضل منكم . وقالت قريش نحن أفضل منكم ، وتخاصموا ، فبلغ ذلك الرسول ، فنزل الأمر بتحريم الخمر [3] .

وفي جملة ما نهى الاسلام عنه (دعوى الجاهلية) من التفاخر بالأحساب والأنساب والتباهي بالمـال والبنين والأموات ، وتحـريم بعض الطعام والشراب والعادات الاجتماعية والأوضاع الاقتصادية على نحو ما رأينا فيما تقدم ، وما سنراه فيما بعـد .

وقد ترك المسلمون أموراً كثيرة أخرى مما كان مستعملاً في الجاهلية ، فمن ذلك تسميتهم للخراج إتاوة ، وكقولهم للرشوة ولما يأخذه السلطان : الحُملان والمكس . وكما تركوا : أنعم صباحاً ، وأنعم طلامـاً ، وصاروا يقولون : كيف أصبحتم ؟ وكيف أمسيتم ؟ كما تركوا ان يقولوا للملك أو السيّد المطاع :

١ اللسان (٤٤٦/٧) ، (شوظ) .
٢ تاج العروس (٢٥٤/٥) ، (عكظ) .
٣ تفسير الطبري (٢٢/٧) .

أبيت اللعن ، وتركوا ان يقول العبد لسيده : ربي ، وان تقول حاشية الملك والسيد للملك والسيد : ربنا . وكما تركوا ان يقولوا لقوام الملوك السدنة ، وقالوا : الحجبة . كما تركوا أشياء أخرى مثل المرباع والنشيطة والصفايا ، الى غير ذلك ، مما كان مستعملاً في الجاهلية . فكره لذلك استعماله في الاسلام[1] .

١ الحيوان ، للجاحظ (١/٣٢٧) ، (ما ترك الناس من الفاظ الجاهلية) .